جمعية البلاغ الثقافية
Al-Balagh Cultural Association

الإعجاز البياني في تحولات النظم القرآني

د عبد الله علي الهتاري

جمعية البلاغ الثقافية

الإعجاز البياني
في
تحولات النظم القرآني

د عبد الله علي الهتاري
أستاذ البيان القرآني
كلية الشريعة جامعة قطر

رقم الإيداع بدار الكتب القطرية:	Legal Deposit No / 2022 / 961
الرقم الدولي (ردمك):	ISBN 9789927152870

جمعية البلاغ الثقافية

الطبعة الأولى
١٤٤٤هـ - ٢٠٢٢م

دار روزا للنشر

المقدمة

الحمد لله الذي علم الإنسان، وأنزل كتابه للهداية والبيان، وأصلي وأسلم على خير رسله، وأنبيائه محمد صلى الله عليه وسلم، وعلى آله وصحبه الأخيار، ومن سار على درب خطاهم واهتدى بهديهم، إلى يوم الدين.

وبعد.

فالقرآن الكريم، كتاب الله الذي لا تنقضي عجائبه، ولا يشبع منه العلماء، وكلما أمعن المتأملون النظر فيه والفكر، وجدوا أنفسهم أمام بحر من المعاني لا ساحل له، فمعانيه متجددة حيّة، تتجددُ بتجدد الزمان والمكان.

ومع كونه معجزة بيانية خالدة، هو -مع ذلك- معجزة تشريعية ربانية، لذلك انصرفت إليه جهود علماء اللغة والبيان؛ لمعرفة أساليبه، وبلاغة بيانه، فهو كتاب العربية الأول والبيان الخالد.

وقد تناولت في هذا الكتاب ظاهرةً من ظواهر التعبير القرآني، التي تبرز إعجازه البياني في دقة اختيار الألفاظ والتراكيب في السياق القرآني، وهي ظاهرة التحول الحاصل في التركيب النحوي بإعادة عنصر من عناصر بنائه على نسق مخالف لما سبق ذكره في السياق نفسه، وهذه الظاهرة هي من أبرز الظواهر البلاغية في البيان القرآني.

إذ نجد أن التعبير القرآني كثيراً ما يغاير في استعمال الأفعال، كأن يرد السياق ابتداءً بالفعل الماضي، ثم يتحول عنه إلى المضارع أو الأمر في السياق نفسه، وكذلك العكس بأن يرد الفعل في السياق مضارعاً، ثم يتحول عنه إلى الماضي وهكذا.

فمن نماذج ذلك مثلاً قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ﴾ (الأعراف،**170**) ؛ إذ نجد التعبير القرآني قد تحول عن الفعل المضارع (يمسكون) إلى الماضي (أقاموا)، وقد كان المتوقع لدى المتلقي اطراد السياق على سبيل المطابقة في الأفعال فيكون (يمسكون ... ويقيمون).

وكذلك ما نجده من مغايرة بين الاسم والفعل في نحو قوله تعالى: ﴿يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ﴾ (الأنعام، **95**).

أهمية الموضوع ودواعي دراسته:

هذه التحولات في السياق القرآني، تفاجئ المتلقي وتثير دهشته؛ لخروجها عن المتوقع لديه من اطراد السياق على نمط واحد من المطابقة والمشاكلة، مما يدعو ذلك المتلقي البحث عن مثيراتها السياقية، وأبعادها الدلالية.

لذلك قامت هذه الدراسة لمحاولة الوقوف على صور هذا التحول وأبعاده الدلالية في التعبير القرآني، فهذا التحول ظاهرة نحوية بلاغية، تبرز وجهاً من وجوه الإعجاز البياني في القرآن، وتدلل على ما وهب المولى عزوجل هذه اللغة، لغة التنزيل من إمكانات عديدة، وقدرات فائقة في التصرف في التعبير، والتعدد في الدلالات.

وتحاول هذه الدراسة أيضاً ربط التركيب بالمعنى، فالتركيب لا يوجد دون دلالة مقصودة منه، والدلالة لا تفهم بمعزل عن التركيب، وتسهم أيضاً في تأكيد مقولة الجرجاني في أن القرآن معجز بنظمه، وأن النظم ما هو إلا توخي معاني النحو.[1]

وهذه الدراسة تقع في تمهيد وثلاثة مباحث وخاتمة، على النحو الآتي:

التمهيد وفيه عرضت لمفهوم التحول وارتباطه بالبعد البلاغي في السياق القرآني، وصوره وأشكاله عموما.

المبحث الأول: تناولت فيه التحول في الأفعال، وصوره محللاً نماذج من هذه الصور.
المبحث الثاني: عرضت فيه التحول في الأسماء، مظاهره وأشكاله.
المبحث الثالث: عرضت فيه أخيراً صور التحول من الاسم إلى الفعل وعكسه.

1- انظر: دلائل الإعجاز، 81.

وفي الخاتمة: عرضت أهم النتائج التي توصلت إليها في الدراسة، وذكرت أهم المصادر والمراجع التي أفدت منها.

وقد كان المقصد من تناول هذا التحولات الأسلوبية في القرآن الكريم هو التحليل والتعليل لصورها وأنماطها، لا الوقوف عند ظاهر التركيب، وهذا جهدٌ لا أزعم فيه أنني قد استوفيت كل جزئيات هذا الموضوع في القرآن الكريم، فالنص القرآني أكبر من أن يحيط به دارس، لكني أفدت منه ما يحقق لي هدف هذه الدراسة.

وختامًا، فهذا جهد متواضع حاولت فيه إبراز مظهرٍ من مظاهر بلاغة هذا القرآن العظيم، ولغته لغة التنزيل فإن أصبت في ذلك فلله الحمد والمنة، وإن أخطأت فحسبي أن لي أجر المجتهد المخطئ.

وأساله عز وجل أن يكتب لي أجر هذا العمل، وأن يجعله خالصًا لوجه الكريم، وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وعليه فليتوكل المتوكلون.

التمهيد:

المقصود بالتحولات السياقية التي تحصل للتراكيب النحوية هي المخالفة في الأفعال والأدوات والجمل والنسق الإعرابي، وما لذلك من دلالات بلاغية، مما يصب في ما أسماه شيخ البلاغة عبد القاهر الجرجاني معاني النحو[2]، وعدّه المزية في معرفة إعجاز القرآن، فالقرآن مُعْجِز بنظمه، وذلك من خلال توخّي معاني النحو في تراكيبه وجمله وأسلوبه، وهذا الأمر يدعو إلى دراسة للنحو لا تنفك عن دلالة السياق ومعناه، وتكشف الدراسة من خلاله علاقة المعنى في توجيه الأسلوب وجمالياته، وذلك بدراسة التراكيب النحوية ضمن سياقاتها النصية، بما يسمى (نحو النص)، لا نحو القاعدة المنفصلة عن النص وسياقها النصي، وهذه الدراسة تربط النحو بالمعنى، وتوظف النحو في تحليل النص وفهم معانيه.

فالنحو في بداياته الأولى عند سيبويه (ت **180**هـ) كان نحواً يهتم بسياقات النص، فالتراكيب النحوية تدرس في سياقاتها النصية، فيتذوق بها جمال النص وبلاغته، وقد أشار إلى ذلك الشاطبي (ت **790**هـ) بقوله: "فسيبويه وإن تكلم في النحو فقد نبه في كلامه على مقاصد العرب، وأنحاء تصرفاتها في ألفاظها ومعانيها، ولم يقتصر فيه على بيان أن الفاعل مرفوع وأن المفعول منصوب، ونحو ذلك، بل هو يبين في كل باب ما يليق به حتى إنه احتوى على علمي المعاني والبيان، ووجوه تصرفات الألفاظ والمعاني".[3]

وقد تناول بعض الباحثين المعاصرين ارتباط النحو بالمعنى عند سيبويه في رسالة جامعية بعنوان "الأصول البلاغية عند سيبويه في الكتاب"[4]، وتناول ذلك أيضاً عبدالقادر حسين في كتابه[5] "أثر النحاة في البحث البلاغي".

2- انظر: دلائل الإعجاز، 81، يقول الجرجاني: "واعلم أن ليس (النظم) إلا أن تضع كلامك الوضع الذي يقتضيه "علم النحو"، وتعمل على قوانينه وأصوله، وتعرف مناهجه التي نُهِجت فلا تزيغ عنها، وتعرف الرسوم التي رسمت لك، فلا تخل بشيء منها".

3- الموافقات، الإمام الشاطبي، 54/5.

4- الأصول البلاغية عند سيبويه في الكتاب، أحمد سعد محمد، القاهرة، مكتبة الآداب، 1999.

5- أثر النحاة في البحث البلاغي، عبدالقادر حسين، دار غريب، القاهرة، 1998.

والمقصود بالنحو في بحثنا هذا هو النحو التفسيري لا النحو التعليمي، أي: "النحو بوصفه البنية العميقة التي تعطي الجملة معناها، والنحو كما قدمه علماؤنا الأوائل علم نصي؛ لأنه يتعامل مع التراكيب، ولا يمكن فهم تركيب ما إلا من خلال بنيته النحوية".[6]

واخترت أن تكون هذه الدراسة نحوية بلاغية تتناول أعظم النصوص اللغوية وأرقاها وهو القرآن الكريم، فالباحث "كلما كان قريباً من النصوص اللغوية متعاملاً معها تجلت له غاية النحو الحقيقية، ولذلك لا محيد عن العودة إلى النصوص، فإن العمل من خلالها يفتح آفاقاً كثيرة مفيدة".[7]

وليست غاية النحو معرفة الخطأ والصواب في ضبط الكلمة فحسب، وإنما غايته الحقيقية هي تحليل النصوص ومعرفة أسرار تراكيبها من خلال فهم تعالق مفردات التراكيب بعضها ببعض والفروق بينها، فهو إبداع ولا بد من تفجير طاقته المبدعة في إضاءة النص وتفسيره "فالنحو ليس موضوعاً يحفل به المشتغلون بالمثل اللغوية، والذين يرون إقامة الحدود بين الصواب والخطأ، أو يرون الصواب رأياً واحداً، النحو مشغلة الفنانين والشعراء، والشعراء والفنانون هم الذين يفهمون النحو، أو هم الذين يبدعون النحو، فالنحو إبداع".[8]

والغاية من نشوء النحو العربي ليس فشو اللحن والخوف من تطرقه إلى عربية القرآن، وإن كان هذا الأمر يأتي ضمناً لغاية أهم وهي الرغبة القوية في معرفة أسرار التركيب القرآني، والوصول إلى فهم دقائق معانيه، ومعرفة أسرار إعجازه.[9]

وقد حاد النحو عن غايته الأولى على أيدي المتأخرين من النحاة إذ جعلوا الغاية منه تمييز صحيح الكلام من فاسده، ومعرفة إعراب أواخر الكلم، "وحصر النحو في دائرة الإعراب والبناء الضيّقة المغلقة لا يتسع لكشف فاعلية النحو في توضيح النص وتفسيره واستخراج طاقاته".[10]

6- منهج في التحليل النصي، محمد حماسة عبداللطيف، 114.
7- النحو والدلالة، 340.
8- النحو والشعر، قراءة في دلائل الإعجاز، مصطفى ناصف، مجلة فصول، العدد الثالث، إبريل، 1988، 36.
9- انظر: النحو والدلالة، محمد حماسة، 26.
10- السابق، 27.

القيم الفنية للتحول السياقي:

يُعد التحول "تفنناً في الكلام وتصرفاً فيه يكسب النص قيمة جمالية، وينبه إلى أسرار بلاغية كثيرة"[11]. وهو من فنون التواصل بين المبدع والمتلقي؛ لأنه يبرز "إمكانات المبدع في استعمال الطاقة التعبيرية الكامنة في اللغة"[12]؛ "لإيصال رسالته إلى المتلقي بكل ما فيها من قيم جمالية، فيتحول الأسلوب عن نمط الأداء المألوف المعتاد؛ ليحقق ما يريده من أهداف يعجز عن توصيلها التركيب العادي".[13]

يقول الدكتور محمد بركات أبو علي: "والخروج على خلاف مقتضى الظاهر يرتبط بخروج معاني جديدة يهدف إليها المتكلم عند كلامه، ويتغياها المتفنن موافقةً لشعوره، وحبه لما يريده.[14]

وهو يقطع رتابة النص بما يضفيه من تحولات في التراكيب تثير دهشة المتلقي وتلفت انتباهه، وذلك بكسر أفق التوقعات لدى المتلقي من خلال حركة التراكيب في موضعها "وتحورها تحوراً غير مألوف يبرز دلالةً فيها كثير مما لا يتوقعه المتلقي"[15]. وخروج السياق عن "هيكل هذه التوقعات هو الذي يسمح بقياس مدى قيمته الأدبية".[16]

ويسهم في تفاعل المعاني وتوالد الدلالات، "فالنصوص الإبداعية نصوص مفتوحة قابلة لمستويات متعددة في القراءة".[17]

والنص القرآني تتعدد قراءاته وفهم دلالاته، وقد وصفه الله -عزوجل- بقوله: ﴿كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُوا الأَلْبَابِ﴾ (ص، **29**).

فهو مبارك في معانيه ومضامينه، لا تنقضي عجائبه، ولا يشبع منه العلماء، ويقتضي

11- تحولات البنية في البلاغة العربية، 356.
12- جدلية الإفراد والتركيب، محمد عبدالمطلب، 188.
13- تحولات البنية في البلاغة، 293.
14- البلاغة العربية في ضوء الأسلوبية ونظرية السياق، 77، وقد تناول هذا الموضوع بالتحليل والشرح في كتابه هذا من 65-82.
15- جدلية الإفراد والتركيب، محمد عبد المطلب، 188.
16- مناهج النقد المعاصر، صلاح فضل، 151.
17- النص الأدبي بين القارئ والمبدع، غسان السيد، 163.

تدبره عدم الوقوف عند ظاهر عباراته فقط، بل ينبغي تجاوز ذلك بإعمال النظر الدقيق والفهم العميق في فهم ما وراء عباراته ونصوصه من دلالات وإيحاءات، وذلك يحتاج إلى إعمال طاقات التأويل فيه من ذوي الأفهام والألباب.

والعربية بما اشتملت عليه من أساليب بيانية وصور بلاغية وسيلة لتدبر القرآن الكريم وفهمه. والتحول من الأساليب المهمة في ذلك؛ لأنه يشد انتباه المتلقي فيدخله في دائرة التأويل والتفكير وإعمال النظر لفهم دلالات النص وأسراره، ويكتسب النص قيمته الفنية "من خلال قدرته على الإيحاء وهذا الذي يجعله يستمر في حضوره الدائم عبر الزمن ويكتب له الخلود".[18]

وإذا كانت القيم الفنية للتحولات التركيبية في الأسلوب تبدو في كلام البشر من الشعراء والأدباء فيتذوقها النقاد والبلغاء، فإن هذه القيم "أروع ما تكون في كلام خالقهم -عزوجل- ولكن الأذهان تتفاوت في إدراكها والوصول إلى أغراضها، فقد تقترب منها وقد تصل إلى بعضها".[19]

والتحول وإن مثل قيمة فنية في تحليل النصوص وتذوقها، فلا يعني مطلقاً أن مجيء الكلام على ظاهره خلواً من هذا الأسلوب يخلو من مدلول بلاغي، فلكلٍّ مدلوله البلاغي في سياقه الخاص به، لا سيما السياق القرآني المعجز، "بل قد يكون جريان الكلام على ظاهره أبلغ وأدل على مقصوده من غيره، فليست البلاغة دوماً في الخروج عن المعهود اللغوي".[20]

18- النص الأدبي المتلقي، سعود الجابر، 7.
19- النظم القرآني في آيات الجهاد، 148.
20- التوجيه البلاغي للقراءات القرآنية، 188.

المبحث الأول
التحول في الأفعال

نجد التعبير القرآني كثيراً ما يغاير بين الأفعال فيخالف بين الأفعال نفسها في السياق الواحد، ويتمثل ذلك في التحول في أزمنة الفعل، كأن يتحول عن الماضي إلى المضارع أو العكس، أو عن المضارع إلى الأمر، وغيرها من صور التحول المختلفة لهذا النوع.

وقد قسم النحاة الفعل ثلاثة أقسام هي: "ماضٍ وهو ما دل على الزمن الماضي، ومضارع وهو ما دل على زمن الحاضر أو المستقبل، وجعلوا القسم الثالث وهو الأمر يدخل ضمن الدلالة على زمن المستقبل".[21]

وفي تقسيمهم هذا انطلقوا من أن الأزمان ثلاثة: ماضٍ وحاضر ومستقبل، يقول سيبويه (ت **180**هـ): "وأما الفعل فأمثلة أخذت من لفظ أحداث الأسماء، وبنيت لما مضى، ولما يكون ولم يقع، وما هو كائن لم ينقطع".[22]

"فالنحاة قسموا الفعل على أساس تقسيم الزمن الفلسفي، وهو الماضي والحاضر والمستقبل، وخصوا كل زمن بصيغة معينة، هو معناها في حالة الإفراد والتساوق على السواء".[23]

وقد انتقد بعض الباحثين المعاصرين النحاة؛ لتركيزهم على الزمن في صيغة الفعل، وإهمال السياق الذي وردت فيه، فيرى فاضل الساقي[24]: "أنه كان على النحاة أن يدركوا أن الأفعال مجرد صيغ وألفاظ تدل على زمن ما، هو جزء من معنى الصيغة لا على زمن معين، وأن السياق أو الظروف القولية بقرائنها اللفظية والحالية هي وحدها التي تعين الدلالة الزمنية وترشحها لزمن بعينه".

21- أقسام الكلام العربي، فاضل الساقي، 229.
22- الكتاب، 12/1.
23- أقسام الكلام العربي، 231.
24- السابق، 232.

وأرى أن دلالة السياق على الزمن النحوي لا تنفصل عن دلالة المفردة للصيغة الصرفية، فهما متعالقتان، وأن الصيغة الصرفية لا تخلو من دلالة زمنية، غير أن السياق يضفي دلالة إضافية للدلالة الصرفية المفردة يحددها السياق نفسه، فيُجمع بين الدلالتين، ولا تلغي إحدى الدلالتين الأخرى، أو تفرغها من محتواها.

فمن ذلك مثلاً: الفعل "أتى" في قوله تعالى: ﴿أَتَىٰ أَمْرُ اللهِ فَلاَ تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ (النحل، 1). يدل بصيغته الصرفية على المضي المطلق، في زمن مضى وانقضى، إلا أن وروده في السياق "يفرض عليه دلالة سياقية يقتضيها السياق ويدل عليها، وهي دلالة الاستقبال؛ لأن القرينة اللفظية "فلا تستعجلوه" في السياق النحوي التركيبي تشير إشارة واضحة جلية إلى أنه لما يقع بعد. ومع كونه فعلاً ماضياً في الصيغة الصرفية، فإننا لا نفرغ هذه الصيغة الصرفية من دلالتها الزمنية ولا نخضعها للدلالة السياقية فقط، كما ذهب إلى ذلك بعض الباحثين، إذ لو كان ذلك هو المراد لجاءت الصيغة صريحة بقوله: "سيأتي أمر الله". ومع ذلك لا نقف عند حدود الدلالة الصرفية اللفظية لنقول: بأنه فعل ماضٍ قد وقع وحصل؛ فالقرينة السياقية تمنع ذلك وهي قوله: "فلا تستعجلوه"، وإنما نجمع بين الدلالتين الصرفية والنحوية، الإفرادية والتركيبية، لنقول: إن المراد "هو توظيف الصيغة في معنى الاستقبال متضمنة معنى المضي وموظفة له في الوقت نفسه، فكأن مقصود الآية أن تقول: سيأتي أمر الله لا محالة مجيئاً مقطوعاً به، بل هو في حكم ما وقع وأتى بالفعل".[25]

ونلحظ أن مجيء الأفعال في السياق القرآني كثيراً ما يخرج عن النمط المألوف للغة من حيث التصرف في أزمنة الفعل، وذلك كالتعبير عن الحدث الماضي بالمضارع والتعبير عن الحدث المستقبل بالزمن الماضي، وكثيراً ما نجد السياق القرآني لا يجري على نمط واحد في المطابقة الزمنية بين الأفعال، إذ يحصل تصرف في التحول الداخلي للسياق نفسه بالمخالفة في أزمنة الأفعال، كأن يرد في السياق ذكر الفعل المضارع ثم ينكسر النسق السياقي بمجيء الفعل الماضي في السياق نفسه أو العكس، مما يثير التساؤل عن معرفة سبب ذلك التحول ودلالته التعبيرية في السياق القرآني.

25- الإعجاز الصرفي، 52-53.

وقد توقف علماؤنا قديما عند هذا النوع من التحول وعدّوه ضرباً من البلاغة، يقول ابن الأثير (ت **636**هـ): "واعلم أيها المتوشح لمعرفة علم البيان أن التحول عن صيغة من الألفاظ إلى صيغة أخرى لا يكون إلا لنوع خصوصية، اقتضت ذلك، وهو لا يتوخّاه في كلامه إلا العارف برموز الفصاحة والبلاغة الذي اطّلع على أسرارها، وفتّش عن دفائنها، ولا تجد ذلك في كل كلام، فإنه من أشكل ضروب علم البيان، وأدقها فهماً وأغمضها طريقاً".[26]

ونحن في تناولنا لهذا التحول في صيغ الأفعال، لا نتناولها من الناحية الصرفية، وإنما نتناولها من حيث دلالة الزمن النحوي الذي وردت فيه في السياق.

إذ تناول هذه الصيغ مفردة خارج السياق اللغوي يعد تناولاً صرفياً، وتناولها في السياق الواردة فيه من حيث الدلالة الزمنية يعد تناولاً نحوياً سياقياً، كما سبقت الإشارة إليه.

ويتمثل التحول في الأفعال في ست صور هي على النحو الآتي:

الصورة الأولى: التحول من الفعل الماضي إلى المضارع:

مجيء المضارع بعد الماضي في هذا الضرب من التحول يكون على نوعين[27]: نوع يستعمل فيه المضارع للدلالة على حدث قد مضى وانقضى، ونوع آخر يستعمل فيه المضارع للدلالة على حدث يقع في الحال والاستقبال.

أما النوع الأول: فمجيء المضارع فيه للدلالة على حدث قد مضى، وقد قرر علماء البلاغة أن المضارع في الحالة هذه يقصد به استحضار الصورة للحدث الماضي، وكأنه أمر مشاهد بارز للعيان، يقول ابن الأثير[28]: "واعلم أن الفعل المستقبل إذا أتي به في حالة الإخبار عن وجود الفعل، كان ذلك أبلغ من الإخبار بالفعل الماضي، وذلك لأن الفعل المستقبل يوضح الحال التي يقع فيها، ويستحضر تلك الصورة حتى كأن السامع يشاهدها، وليس كذلك الفعل الماضي". وهذا ما أطلق عليه الزمخشري (ت **538**هـ) مصطلح "حكاية

26- المثل السائر، 2/193-194.
27- انظر: المثل السائر، 2/194.

الحال". يقول الزمخشري عند قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَاباً فَسُقْنَاهُ إِلَى بَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَلِكَ النُّشُورُ﴾ (فاطر، **9**). فإن قلت لم جاء "فَتُثِيرُ" على المضارعة دون ما قبله وما بعده؟ قلت: ليحكي الحال التي تقع فيها إثارة الرياح السحاب، وتستحضر تلك الصورة البديعة الدالة على القدرة الربانية"[29].

فالسياق هو الذي أضفى على الفعل المضارع في هذه الحالة دلالة زمنية معينة، وذلك من عطف الفعل المضارع على الفعل الماضي، إذ يقتضي السياق بموجب المطابقة الزمنية أن تجري الأفعال الواردة فيه على نسق واحد، يقول السيوطي (ت **911**هـ)[30]: "وما عطف على حال أو مستقبل أو ماضٍ أو عطف عليه ذلك فهو مثله؛ لاشتراط اتحاد الزمان في الفعلين المتعاطفين".

فمجيء الفعل المضارع في الحالة هذه خارجاً عن النسق العام للسياق يؤدي إلى توليد دلالتين بارزتين في السياق، دلالة نحوية متمثلة في الفعل المضارع الدال على الزمن الحاضر أو الاستقبال، ودلالة سياقية متمثلة في الإشارة إلى الزمن الماضي، وذلك بالعطف على الماضي أو مجيئه بعده، فالدلالة السياقية تقتضي مضيه والدلالة النحوية للصيغة تقتضي استحضاره، فيجمع بين الدلالتين ليقال: إنه الماضي الحاضر.

وعد السكاكي (**626**هـ) هذا النوع من التحول أصلاً بلاغياً ثابتاً إذا اقتضى السياق اللجوء إليه، فقال[31]: "وإنه -أي الانتقال من التعبير بالماضي إلى المضارع- طريق للبلغاء لا يتحولون عنه، إذا اقتضى المقام سلوكه".

ويرد هذا النوع من التحول بكثرة في الكتاب العزيز، ويعد من روائع البيان فيه، إذ عمد القرآن الكريم إلى صورة مغرقة في القدم فاستدعاها من الماضي السحيق إلى الزمن الحاضر؛ لتصبح كأنها مشاهدة ماثلة للعيان، من ذلك قوله تعالى مخاطباً اليهود: ﴿أَفَكُلَّمَا جَاءكُمْ رَسُولٌ بِمَا لاَ تَهْوَى أَنفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقاً كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقاً تَقْتُلُونَ﴾ (البقرة، **87**).

28- السابق/ 194/2.
29- الكشاف، 301/3.
30- همع الهوامع، 23/1.
31-مفتاح العلوم، 247.

ففي هذا السياق حصل تحول عن الفعل الماضي "كذبتم" إلى الفعل المضارع "تقتلون" وكان مقتضى السياق بموجب المطابقة الزمنية بين الأفعال أن يكون على النحو "ففريقاً كذبتم وفريقاً قتلتم".

لا سيما أنه يتحدث عن أمر حدث في الزمن الماضي، من تكذيب اليهود للأنبياء وقتلهم إياهم، لكن السياق تحول من الماضي إلى المضارع؛ لأن قتل الأنبياء أمر فظيع، فأراد استحضاره في النفوس وتصويره في القلوب.[32]

وسياق هذه الآية يشابهه سياق آخر وهو قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُواْ بِمَا أَنزَلَ اللّهُ قَالُواْ نُؤْمِنُ بِمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرونَ بِمَا وَرَاءهُ وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقاً لِّمَا مَعَهُمْ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنبِيَاءَ اللّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ (البقرة، **91**).

إذ جاء الفعل المضارع "تقتلون" الدال على الحال مقترناً بظرف الزمان "قبلُ" الدال على الماضي، مما يجعل دلالة الفعل المضارع دالة على الزمن الماضي، فالفعل لا يدل على زمن الحدوث، وإنما يدل على زمن الإخبار، فللفعل الماضي زمانان؛ زمن حدوث ووقوع، وزمن إخبار عنه، وهو ما أشار إليه الزجاجي (ت **337**هـ) بقوله[33]: "والفعل الماضي ما تقضى وأتى عليه زمانان، لا أقل من ذلك، زمان وجد فيه، وزمان خبر فيه عنه".

ونجد أن السياق القرآني قد نسب جريمة القتل إلى الأحفاد عندما خاطبهم فقال: "فلم تقتلون أنبياء الله من قبلُ"، في حين أن القتل قد حصل في الزمن الماضي من الأجداد، وذلك من بلاغة السياق القرآني، إذ أفاد الفعل "تقتلون" الاستمرارية للحدث، كما أفاد الحضور للمشهد في الأذهان، إشارة إلى أن نزعة القتل والإجرام تسري في دماء الأحفاد كما سرت في دماء الأجداد.

وفي ذلك تنبيه في الوقت نفسه على أنهم ذرية بعضها من بعض، وأنهم سواسية في الجرم، فعلى أيهم وضعت يدك فقد وضعتها على الجاني الأثيم؛ لأنهم لا ينفكون عن الاستنان بسنة أسلافهم، أو الرضى عن أفاعيلهم، أو الانطواء على مثل مقاصدهم".[34]

32- انظر: الكشاف، 295/1.
33- الإيضاح في علل النحو، أبي القاسم الزجاجي، 87.
34- النبأ العظيم، نظرات جديدة في القرآن، 154.

وأضفى ظرف الزمن الماضي "قبلُ" على السياق دلالتين، دلالة تفيد إرجاع السياق اللغوي للفعل إلى الزمن الحقيقي للحدوث وهو الماضي، ودلالة أخرى توحي بأن قتل الأنبياء قد كان في الزمن الماضي في حق من سلف منهم، أما هذا النبي فلا يمكنون منه، فالله يعصمه من الناس، يقول دراز[35]: "ولقد كان التعبير بهذه الصيغة مع ذكر الأنبياء بلفظ عام مما يفتح باباً من الإيحاش لقلب النبي العربي الكريم وباباً من الأطماع لأعدائه في نجح تدابيرهم ومحاولاتهم لقتله، فانظر كيف أسعفنا بالاحتراس عن ذلك كله بقوله "من قبلُ" فقطع بهذه الكلمة أطماعهم وثبت بها قلب حبيبه، إذ كانت بمثابة وعده إياه بعصمته من الناس".

"فإذا أخذنا بدلالة الماضي للظرف "قبلُ" كانت دلالة الفعل "تقتلون" تفيد استحضار الصورة لحدث مضى في الزمان، وإذا أخذنا بما توحيه دلالة "قبلُ" من استحالة حصول الفعل وتحققه بالنسبة لهذا النبي، كانت دلالة الفعل "تقتلون" تفيد تجدد محاولة الفعل منهم والاستمرار، والجمع بينهما نوع من الانفتاح الدلالي للنص القرآني.

ولكننا نجد سياقاً آخر في القرآن الكريم يرد فيه الإخبار بصيغة ضمير الغائب في الحديث عن بني إسرائيل، كما هو الحال في قوله تعالى: ﴿لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَأَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ رُسُلاً كُلَّمَا جَاءهُمْ رَسُولٌ بِمَا لاَ تَهْوَى أَنْفُسُهُمْ فَرِيقاً كَذَّبُواْ وَفَرِيقاً يَقْتُلُونَ﴾ (المائدة، **70**)

وهذا السياق تنسجم فيه الدلالة الزمنية للسياق الداخلي من خلال الإخبار عمن سبق من بني إسرائيل بصيغة ضمير الغائب "إليهم، جاءهم، أنفسهم" مع السياق الخارجي للزمن الماضي، وبناءً على ذلك فتنصرف دلالة الفعل المضارع "يقتلون"، في الحالة هذه إلى استحضار الصورة لا غير، وليس فيه دلالة استمرار الحدث وتجدده، يقول الزمخشري (ت **538**هـ)[36]: "جيء "يقتلون" على حكاية الحال الماضية استفظاعاً للقتل واستحضاراً لتلك الحالة الشنيعة للتعجيب منها".

35- السابق، 155.
36- الكشاف، 633/1.

ومما سبق ذكره يمكننا الجمع بين دلالات هذه السياقات المختلفة، لنقول: إن دلالة الفعل "يقتلون" تفيد استحضار صورة قتل الأجداد للأنبياء تبشيعاً لقبح فعلتهم، وذلك من سياق الإخبار عنهم بضمير الغائب، وفيه دلالة على استمرار الحدث وتجدد حصوله من الأبناء والأحفاد وذلك من سياق الخطاب، وفيه تيئيس من تحقق ذلك وحصوله في حق هذا النبي صلى الله عليه وسلم. وهذا يعد من بلاغة تصريف القول في القرآن الكريم، فقد تم توظيف القيمة الزمنية في صياغة الفعل للحصول على مساحة تتعدد فيها الدلالات للنص وتتسع.

وكما أن وظيفة استحضار الصورة في سياق الآيات السابقة كان لغرض تصوير فظاعة الحدث وقبحه، فكذلك نجد استحضار الصورة في سياق آخر يرد للفت الأنظار إلى موضع القدرة والاعتبار، من ذلك قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَاباً فَسُقْنَاهُ إِلَى بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَلِكَ النُّشُورُ﴾ (فاطر، **9**). فإنه إنما قال: "فتثير، مستقبلاً، وما قبله وما بعده ماضٍ؛ لذلك المعنى الذي أشرنا إليه وهو حكاية الحال التي يقع فيها إثارة الريح السحاب، واستحضار تلك الصورة البديعة الدالة على القدرة الباهرة".[37]

ويتحول الماضي المنفي إلى المضارع المنفي فيفيد الفعل المضارع في هذه الحالة تأكيد النفي، وليس استحضار الصورة كما هو الحال مع المضارع المثبت، وهو ما ذهب إليه ابن جني (ت **392**هـ) إذ قال[38]: "ومنه قولهم: لم يقم زيد، جاءوا فيه بلفظ المضارع وإن كان معناه المضي؛ وذلك أن المضارع أسبق رتبة في النفس من الماضي، ألا ترى أن أول أحوال الحوادث أن تكون معدومة، ثم توجد فيما بعد، فالمضارع معدوم باعتبار أنه لم يقع بعد، أما الماضي فقد وقع وانتهى، فإذا نفي المضارع الذي هو الأصل فما ظنك بالماضي الذي هو الفرع". "وفي هذا النفي نوع من التوكيد، فالتعبير بالمضارع المنفي بدلاً من الماضي لا يفيد عند ابن جني استحضار الصورة، كما يفيد التعبير بالمضارع بصفة عامة، ولكنه يأتي لإرادة التوكيد".[39]

37- المثل السائر، 195/2.
38- الخصائص، 105/3.
39- أثر النحاة في البحث البلاغي، 306.

وبناء على ما تقدم يمكننا فهم سر التحول في سياق قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُم بِالْعَذَابِ فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ﴾ (المؤمنون، **76**). فالمتوقع من سياق هذه الآية أن تكون على النحو التالي: "فما استكانوا لربهم وما تضرعوا" لكن السياق القرآني عدل عن الماضي المنفي إلى المضارع المنفي، والسبب في ذلك -والله أعلم- أن حالة التضرع هي مرتبة أعلى في الخضوع من الاستكانة نفسها، إذ التضرع ضرب من الإمعان في الابتهال واللجوء إلى الله تعالى، فنفي ما هو أدنى يستلزم من باب أولى التأكيد في نفي ما هو أعلى رتبة، فإذا انتفت الاستكانة منهم، فمن باب أولى ينتفي حصول أدنى تضرع منهم، لذا عدل السياق في النفي عن الماضي إلى المضارع؛ فنفي المضارع أشد تأكيداً من نفي الماضي، -كما سبق ذكره عند ابن جني- فوافق المقال مقتضى الحال.

ولعل ذلك ما قصده ابن عاشور بقوله[40]: "والتعبير بالمضارع في "يتضرعون" لدلالته على تجدد انتفاء تضرعهم". إذ يفهم من قوله: "تجدد الانتفاء" تكرار النفي واستمراره وذلك ضرب من التأكيد، وكأني بالسياق يقول: "ما تضرعوا، وما تضرعوا، وما تضرعوا، ..."، فقال: "وما يتضرعون"، وهو ما يفهم أيضاً من قول الألوسي[41]: "وعبر في التضرع بالمضارع ليفيد الدوام، إلا أن المراد دوام النفي، لا نفي الدوام". ولو جرى السياق على النمط المتوقع فجاء "فما استكانوا لربهم وما تضرعوا" لكان المقصود -والله أعلم- وما تضرعوا التضرع المطلوب لرفع البلاء وكشف العذاب، وإنما جاء "وما يتضرعون" لنفي حصول أدنى شيء من التضرع أصلاً".

ولا منافاة فيما قررناه هنا وبين قوله تعالى: ﴿حَتَّى إِذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم بِالْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْأَرُونَ * لا تَجْأَرُوا الْيَوْمَ إِنَّكُم مِّنَّا لا تُنصَرُونَ﴾(المؤمنون، **64-65**). فهناك فرق بين الجؤار والتضرع.

يقول الشهاب الخفاجي (ت **1069**هـ)[42]: "فالتضرع يستعمل فيما إذا كان عن صميم القلب لا باللسان فقط، ولذا عبر عن استغاثتهم أولاً بالجؤار الذي هو من صوت الحيوان،

39- أثر النحاة في البحث البلاغي، 306.
40- التحرير والتنوير، 101/18.
41- روح المعاني، 56/18.
42- حاشية الشهاب الخفاجي على تفسير البيضاوي، 598/6.

فلا منافاة بينهما كما توهم".

وللتحول إلى المضارع دلالات تخرج عن دلالة استحضار الصورة إلى معانٍ أخرى يفصح عنها السياق القرآني الكريم، من ذلك دلالة التلطف في الخطاب، وكثرة وقوع الفعل وتكراره، أو تجدده واستمراره، فمن دلالة التلطف في الخطاب قوله تعالى: ﴿قُل لا تُسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا وَلا نُسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾(سبأ، **25**).

لقد كان من المتوقع لدى المتلقي أن يجري السياق على نمط واحد فيكون" قل لا تُسْأَلون عما أجرمنا ولا نُسْأَلُ عما أجرمتم"، ولكن السياق القرآني عدل عن الظاهر والمتوقع عدولين، عدولاً معجمياً عن لفظة "أجرم" إلى لفظة "عمل"، وعدولاً نحوياً عن الماضي "أجرمنا" إلى المضارع "تعملون".

وعلل ذلك الألوسي فقال[43]: "وهذا أبلغ في الإنصاف، حيث عبر عن الهفوات التي لا يخلو منها مؤمن بما يعبر به عن العظائم وأسند إلى النفس، وعن العظائم من الكفر ونحوه بما يعبر عن الهفوات، وأسند للمخاطبين، وزيادة على ذلك أنه ذكر الإجرام المنسوب إلى النفس بصيغة الماضي الدالة على التحقق، وعن العمل المنسوب إلى الخصم بصيغة المضارع التي لا تدل على ذلك".

"وهذا أسلوب غاية في الكسب للخصم إلى جانب المتحدث، وطريق بارع في التغاضي عن هفوات الخصم، ووسيلة لتحريك دوافع التفكير في المقول، مما يشير إلى وعي الداعية إلى الله في الأسلوب الذي يدعو به الناس".[44]

ومن السياقات القرآنية التي يرد فيها هذا التحول للدلالة على كثرة وقوع الفعل وتكراره قوله تعالى: ﴿وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِن نَّبِيٍّ فِي الأَوَّلِينَ * وَمَا يَأْتِيهِم مِّن نَّبِيٍّ إِلا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُون﴾ (الزخرف، **6-7**). ففي هذه الآية نجد التحول من الفعل الماضي "أرسلنا" إلى الفعل المضارع "يأتيهم"، وكان المتوقع بموجب المطابقة بين الأفعال أن يرد السياق على النحو التالي: "وكم أرسلنا ... وما أتاهم ... إلا استهزؤا به"؛ لأنه يخبر عن حدث مضى، وذلك

43- روح المعاني، 141/22.

44- التعبير القرآني والدلالة النفسية، 199، رسالة دكتوراه، مخطوطة عبدالله الجيوسي، الجامعة الإسلامية، ماليزيا، 2001م.

بقرينة لفظية، وهي قوله "في الأوّلين"، ولكن التحول إلى الفعل المضارع "يأتيهم" في هذا السياق دل على الكثرة والتكرار، فكثرة مجيء الرسل قوبل بكثرة الاستهزاء، والفعل الدال على ذلك "يستهزؤن" مسبوقاً بـ (كان) "وسبق الفعل المضارع بـ (كان) قد يفيد الدلالة على اعتياد الأمر في الماضي، ووقوعه بصورة متكررة"[45]. قال الرازي[46]: "والمعنى أن عادة الأمم مع الأنبياء الذين يدعونهم إلى الدين الحق هو التكذيب والاستهزاء".

والفرق بين هذا النوع من التحول الدال على الكثرة والتكرار والنوع الآخر الذي يليه الدال على الاستمرار، أن التكرار يتخلله فترات انقطاع، وإن كانت متقاربة في الزمان، في حين أن الاستمرار يقتضي الاتصال.

ومن أمثلة مجيء هذا التحول للدلالة على الاستمرار، قوله تعالى: وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلا أَن يُؤْمِنُوا بِاللّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ (البروج، **8**). إذ تحول السياق القرآني عن الفعل الماضي "نقموا" إلى المضارع "يؤمنوا" وكان يتوقع أن يرد السياق على النحو التالي: "وما نقموا منهم إلا أن آمنوا بالله العزيز الحميد؛ لأنه يخبر عن حدث مضى وانقضى، وهو ما حصل للفئة المؤمنة على أيدي أعدائهم، واللافت للنظر، هو مجيء الفعل المضارع "إلا أن يؤمنوا" وليس "إلا أن آمنوا"، كما هو الحال في قوله تعالى:﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّا إِلاّ أَنْ آمَنَّا بِاللهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلُ وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَاسِقُونَ﴾ (المائدة، **59**).

فما السر في مجيء الفعل "نقموا" ماضياً في سياق سورة البروج، والتحول منه إلى المضارع "يؤمنوا" في السياق نفسه، في حين ورد العكس في سورة المائدة إذ جاء الفعل "تنقمون" مضارعاً وتحول منه إلى الماضي "آمنا"؟!

والذي يظهر لي –والله أعلم– أن السياق هو الذي يفرض التعبير المقصود للمعنى المسوق له، فيكون كل سياق قد اختص بتركيب قصد إليه لمعنى، وهو من البلاغة بمكان؛ لأنه يقتضي موافقة الكلام لمقتضى الحال. فمجيء الفعل "نقموا" ماضياً في سياق الآية السابقة من سورة البروج يشير إلى أن هذه النقمة مضت وانتهت بهلاك الذين فُتِنُوا من المؤمنين، فليس فيها تجدد واستمرار، ودل التحول إلى صيغة المضارع "إلا أن يؤمنوا" على

45- معاني النحو، 319/3.
46- تفسير الرازي، 619/27.

أن أعداءهم نقموا منهم استمرارهم على الإيمان وثباتهم عليه[47]. في حين دل سياق الآية من سورة المائدة على أن نقمة أهل الكتاب متجددة مستمرة ضد المسلمين لا تنقطع عنهم بحال، بدلالة الفعل المضارع "تنقمون"، ودل التحول إلى الفعل الماضي "آمنا" أن إيمان المسلمين حاصل متحقق، فهو في حكم الماضي في تحققه وحصوله، فلا مطمع لأعدائهم في ارتدادهم عنه. ويبرز الانفتاح الدلالي للنص القرآني في هذا السياق، ليضيف دلالة أخرى للفعل الماضي مفادها أن إيمان المسلمين ليس حادثاً، وإنما هو امتداد لقافلة الإيمان التي مضت في تاريخ البشرية.

وما سبق ذكره من الآيات القرآنية هي نماذج للنوع الأول الذي يستعمل فيه المضارع للدلالة على حدث مضى وانقضى. وأما النوع الثاني: فيرد فيه المضارع للدلالة على حدث يقع في الحال والاستقبال.

ويقرر البلاغيون أن مجيء المضارع للدلالة على الحال والاستقبال يفيد التجدد والحدوث، وأن هذا الحدث مستمر الوجود ولم يمض، يقول ابن الأثير[48]: "وعطف المستقبل على الماضي ينقسم إلى ضربين: أحدهما بلاغي، وهو إخبار عن ماضٍ بمستقبل، والآخر غير بلاغي: وليس إخباراً بمستقبل عن ماضٍ، وإنما هو مستقبل دلَّ على معنى مستقبل غير ماضٍ، ويراد به أن ذلك الفعل مستمر الوجود لم يمضِ".

ويُفهم من كلام ابن الأثير أن هذا النوع من التحول ليس ضرباً من ضروب البلاغة، وما ذهب إليه ليس صحيحاً، إذ البلاغة هي موافقة المقال لمقتضى الحال، وقد جاء هذا التحول ليوافق مقتضى الحال الذي سيق من أجله كما سنوضحه لاحقاً في هذا البحث، وقد استعمل في النصوص الأدبية الراقية لا سيما القرآن الكريم، ولا يكون ذلك إلا لمنحى بلاغي، إذ لا يقع ما ليس بليغاً في كلام الله عزوجل، وقد اعترض محمد أبو موسى على ابن الأثير لإخراجه هذا النوع من التحول من البلاغة فقال[49]: "ولست أدري لماذا كان هذا القسم غير بلاغي؟ أليست البلاغة نظراً فيما تنطوي عليه خصائص الألفاظ وأحوالها

47- انظر: غرائب القرآن ورغائب الفرقان، 477/6.
48- المثل السائر، 194/2.
49- البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري، 547.

لإبراز معانيها وبيان لطائفها ومطابقتها لبيان الكلام؟ وأليس هذا داخلاً في أحوال اللفظ التي بها يطابق مقتضى الحال؟"

بل إن ابن الأثير نفسه عند تحليله لنماذج قرآنية من هذا النمط، أشار إلى وجه البلاغة والبيان فيها، مما يوحي بالتضارب لديه.[50]

ويشير هذا النوع من التحول في السياق القرآني إلى دلالات عديدة منها:

- الدلالة على التجدد والاستمرار للحدث.
- الدلالة على إطالة مشهد الحدث.
- التركيز على نتيجة الحدث.

فمن السياقات التي يدل هذا التحول فيها على التجدد والاستمرار قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُواْ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللهِ أَلاَ بِذِكْرِ اللهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ (الرعد، **28**).

إذ تحول إلى المضارع (تطمئن) لدلالته على تجدد الاطمئنان واستمراره؛ وأنه لا يتخلله شك ولا تردد"[51]، ولو جرى السياق على نمط واحد فكان "واطمأنت قلوبهم" لما أفاد معنى التجدد والاستمرار الذي نجده في زمن المضارع الذي أضفى دلالة الزمن المفتوح في الماضي والحاضر والاستقبال، فقلوبهم قد اطمأنت بذكر الله منذ الزمن الماضي وما تزال تطمئن في الحال والاستقبال، في حين ورد ذكر الإيمان بصيغة المضي "آمنوا" لإفادة معنى الحصول والتحقق، فهو ثابت متحقق كتحقق الماضي.

ومنه قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ صَبَرُواْ ابْتِغَاء وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُواْ الصَّلاَةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرّاً وَعَلاَنِيَةً وَيَدْرَؤُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أُوْلَئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ﴾ (الرعد، **22**). فقد تحول من الماضي الصلة "صبروا" وما عطف عليه إلى المضارع "يدرؤون"، وذلك "لاقتضاء المقام إفادة التجدد إيماء إلى أن تجدد هذا الدرء مما يحرص عليه، لأن الناس عرضة للسيئات على تفاوت، فوصف لهم دواء ذلك بأن يدفعوا السيئات بالحسنات"[52].

50- انظر: المثل السائر، 2/197-198.
51- التحرير والتنوير، 13/138.
52- التحرير والتنوير، 13/129.

ومن السياقات التي يرد فيها هذا التحول للدلالة على إطالة مشهد الحدث لما في ذلك من التخويف والتهديد قوله تعالى: ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِاللهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾ (الحج، **31**).

إذ حصل في هذا السياق تحول من الفعل الماضي خرّ إلى المضارع "فتخطفه" أو "تهوي"، ولم يأتِ السياق على نمط واحد فيكون "خرّ من السماء فخطفته الطير أو هوت به الريح"، وذلك أن الفعل الماضي يشير في هذا السياق إلى تحقق حصول الخرور من المشرك لا محالة حاله حال الماضي في تحققه، فقال: "خرّ من السماء"، وفيه دلالة على سرعة حصول الخرور والسقوط دون تماسك أو انتظام، كما يوحي به جرس اللفظة "خرّ" وقصرها وخفتها، وتكرار صوت الراء فيها إشارة إلى تكرار السقوط والهوي والتقلب في الهواء، وما أضفاه التفخيم في الخاء والراء من تفخيم لمشهد الهوي نفسه "فالملحوظ هو سرعة الحركة مع عنفها وتعاقب خطواتها في اللفظ بـ "الفاء" وفي المنظر بسرعة الاختفاء"[53]. "ثم عدل إلى المضارع "فتخطفه" و"تهوي" لاستحضار صورة خطف الطير إياه وهوي الريح به"[54]. فكان التحول إلى المضارع لاستحضار المشهد وإطالته، وأمعن في إطالة مشهد الهوي أيضاً مجيء الحرف "في" الذي أفاد هنا الإمعان في تصوير التسفل والسقوط، وكأن المكان السحيق قد أصبح ظرفاً ووعاءً له لا ينتهي فيه إلى قرار. ولو قال: "إلى مكان سحيق" لأفاد انتهاء الهوي به إلى منطقة معينة، وذلك يوحي بالتهديد الشديد والإيعاد لمن كان هذا حاله.

ولو جرى السياق على النمط نفسه من المضي لمضى السياق كله على عجالة دون أن يتمكن المتلقي من إمعان النظر والفكر في مشهد الخطف والهوي.

ومثله قوله تعالى:﴿اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الأَمْوَالِ وَالأَوْلادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرّاً ثُمَّ يَكُونُ حُطَاماً﴾ (الحديد، **20**).

53- في ظلال القرآن، 2421/4.
54- المثل السائر، 197/2.

فقد تحول السياق من الماضي "أعجب" إلى المضارع "يهيج" و"يكون"، ولو جرى السياق على نمط واحد لجاء: "كمثل غيث أعجب الكفار نباته ثم هاج ثم كان حطاماً"، لكن التحول من الماضي إلى المضارع في هذا الموضع جاء لمنحى دلالي مقصود، فالسياق القرآني تجاوز لحظة الإعجاب بهذا الزرع، بالإخبار عنها بالزمن الماضي، وكأنها لحظة مضت دون تريث أو إمهال، تلاها على الفور مشهد الفناء والزوال، مخبراً عنه بالزمن الحاضر، حتى يظل مشهد الاندثار كأنه حاضر ماثل للعيان، ولا ينافي ذلك مجيء حرف العطف "ثم"، فهو هنا يفيد التراخي الرتبي لا الزمني.[55] إذ يوحي المشهد بالتدرج من لحظة السرور والفرح بهذا النبات، إلى مرحلة شديدة على النفس متمثلة في هيجان الزرع وذبوله، تليها مرحلة أشد من سابقتها وهي مرحلة الاصفرار والاحتضار.[56]

ويرد هذا التحول للتركيز على نتيجة الحدث نفسها، من ذلك قوله تعالى:﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ الأَرْضُ مُخْضَرَّةً إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾ (الحج،**63**). وقوله تعالى:﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي الأَرْضِ وَالْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَيُمْسِكُ السَّمَاء أَن تَقَعَ عَلَى الأَرْضِ إِلا بِإِذْنِهِ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَؤُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ (الحج، **65**)، ففي الآيتين السابقتين نجد أنه قد تحول من الماضي "أنزل" و"سخّر" إلى المضارع "يمسك" "فتصبح" واختيرت صيغة الماضي في "سخّر لكم ما في الأرض" و"أنزل من السماء"، وذلك لأن "الرؤية الباعثة على التأمل والاعتبار لا تتعلق بتلك الأحداث بذاتها بل بنتائجها أو آثارها المترتبة عليها".[57]

فمحل التأمل في الآية الأولى ليس فعل التسخير نفسه وإنما مظاهر هذا الفعل وآثاره، ومن أهمها إمساك السماء بغير عمد.

في حين جاء التحول إلى المضارع (فتصبح) في الآية الثانية "لِتُثَبِّتَ المشهد عند نقطة مهمة، ينبغي للمتلقي أن يقف عندها ويستحضرها دائماً أمام عينيه"[58]. وفيه دلالة على "بقاء أثر المطر زماناً بعد زمان، فإنزال الماء مضى وجوده، واخضرار الأرض باق لم

55- انظر: رأي الزمخشري في (ثم) التي تفيد التراخي الرتبي في الكشاف، 154/4.
56- انظر: التحرير والتنوير، 405/27.
57- أسلوب الالتفات في البلاغة القرآنية، 97.
58- تحولات البنية في البلاغة العربية، 321.

يمض".[59]

ومنظر الخضرة في الأرض يشيع البهجة في النفس ويطمئن النفوس على أرزاقها، لذا جاء التعقيب بقوله تعالى: (إن الله لطيف خبير)، فهو لطيف بعباده، خبير بما يصلح أحوالهم.

الصورة الثانية: التحول من الفعل المضارع إلى الماضي:

ويرد هذا النوع من التحول في مواضع عديدة من القرآن الكريم، وفي حين نجد بعض النحاة يجيز عطف الماضي على المضارع أو العكس، نجد آخرين منهم يذهبون إلى تأويل الفعل الماضي في هذه الحالة بالمضارع لينسجم السياق لديهم، فممّن أجاز العطف مطلقاً الرضي في شرح الكافية بقوله[60]: "ويعطف الماضي على المضارع وبالعكس، خلافاً لبعضهم، قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُواْ الصَّلاَةَ﴾ (الأعراف، **170**)، ونحو: (إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا ويَصُدُّونَ) (الحج، **25**)".

وممن ذهب إلى التأويل السيوطي (ت **911**هـ)[61]، إذ يشترط لصحة عطف الماضي على المضارع أو العكس، اتحادهما في التأويل، بأن يكون الماضي مستقبل المعنى ليصح عطفه على المضارع، أو المضارع ماضي المعنى ليصح عطفه على الماضي، فيذهب إلى تأويل الماضي بالمضارع والعكس، وينقل عن السهيلي عدم جواز التعاطف "بين فعل واسم لا يشبهه، ولا فعلين اختلفا في الزمان".[62]

وذهب إلى التأويل أيضاً أبو حيان (ت **754**هـ) والشهاب الخفاجي (ت**1069**هـ) والفراء (ت **207**هـ) وأبو البقاء العكبري (ت **616**هـ)، فمن ذلك مثلاً قوله تعالى:

﴿وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ وَتَرَى الأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَداً * وَعُرِضُوا عَلَى رَبِّكَ صَفّاً﴾ (الكهف، **47-48**)، أي؛ ونحشرهم ويعرضون".[63]

59- المثل السائر، 198/2.
60- شرح الكافية، 87/3.
61- انظر: همع الهوامع، 271/5.
62- السابق، 272/5.
63- انظر: البحر المحيط، 134/6، وحاشية الشهاب، 185/6.

ونحو قوله تعالى: ﴿إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّن السَّمَاء آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ﴾ (الشعراء، **4**)، أي: فتظل".[64]

ويذهب بعض الباحثين المعاصرين -كما سبقت الإشارة إليه- إلى "أن وقوع الصيغ المتغايرة في مستوى تركيبي واحد، يعني تفريغ صيغة ما، دون غيرها من الزمن، ...، ففي قوله تعالى: ﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَبِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ﴾ (هود، **98**)، فالفعل "يقدم" مفرغ من دلالته على الزمن وكذا الفعل "أورد"، وإنما قصد بالأول استحضار صورة الحدث لا غير، وبالآخر تحقق حصول الحدث".[65]

وأرى أنه لا داعي لتأويل الماضي بالمضارع أو العكس، فلو أراد المولى عزوجل أن يرد التعبير بالمضارع أو الماضي لجاء السياق السابق على نحو: "إن نشأ ننزل عليهم من السماء آية فتظل أعناقهم لها خاضعين"، ولجاء قوله مصوراً حال فرعون يوم القيامة على نحو" سيقدم قومه يوم القيامة فسيوردهم النار وبئس الورد المورود"، وإنما ورد التعبير القرآني على هذا النحو لدلالة مقصودة فلا داعي للتأويل، فالعطف بين الأفعال المختلفة في الأزمنة وإن لم يظهر بين هذه المتعاطفات تناسب لفظي بموجب الصنعة النحوية فإن بينها تناسب معنوي يقتضيه السياق، وهو مبدأ نهجه البلاغيون في بحثهم للوصل والفصل.[66]

وقد عني البلاغيون والمفسرون بالإبانة عن دلالات هذا التحول، فيذكر العلوي صاحب الطراز[67]: "أن إيثار الماضي والتحول إليه يدل على مبالغة في الثوابت والاستقرار". ولا يسلم له بهذا العموم، وإنما السياق هو الذي يحدد الدلالة المناسبة، فقد يدل التحول إلى الماضي على الاستقرار كما قال، وقد يدل على غير ذلك من تحقق الفعل أو التقليل والانقطاع، وغير ذلك مما يدل عليه السياق ويقتضيه، فمن هذه الدلالات التي يقتضيها السياق:

- الدلالة على سرعة تحقق حصول الفعل وحدوثه.
- الدلالة على أن الفعل سابق للمضارع في التحقق والحصول.

64- انظر: التبيان في إعراب القرآن، 993/2، والبحر المحيط، 5/7، وحاشية الشهاب، 164/7.
65- انظر: الزمن واللغة، ٧٢ بتصرف.
66- انظر: موضوع الوصل والفصل في: بغية الإيضاح، 85/2، وشروح التلخيص، 2/3-72، والتوجيه البلاغي للقراءات، 248
67- الطراز، 140/2.

- الدلالة على الاختصاص بوصف ثابت.
- إظهار الرغبة في حصول الفعل.
- إظهار الرغبة في انقطاع الفعل وتغييبه.

ومن السياقات القرآنية التي يدل التحول فيها إلى الماضي على سرعة تحقق الفعل وحدوثه قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الأَرْضِ إِلا مَن شَاء اللّهُ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَاخِرِينَ﴾ (النمل، **87**). فقد عدل السياق القرآني عن الفعل المضارع "ينفخ" إلى الماضي "ففزع" وكان مقتضى الظاهر للسياق أن يجري على نسق واحد فيكون "فيفزع" لأن الحدث لم يقع بعد، وإنما هو حديث عن المستقبل البعيد وهو يوم القيامة، فدل التحول إلى الماضي على سرعة تحقق الفعل وحصوله مثل تحقق الماضي في حدوثه، وكأنه يتحدث عن أمر قد حدث وحصل في الزمن الماضي[68] وفيه مزيد من تأكيد لأمر البعث والنشور ودلالة على السرعة والدهشة والذهول، بدلالة مجيء حرف العطف (الفاء).

والتعبير بالفعل الماضي عن المستقبل هو أسلوب من البلاغة بمكان، يقول ابن الأثير[69]: "والإخبار بالفعل الماضي عن المستقبل فائدته أن الفعل الماضي إذا أخبر به عن الفعل المستقبل الذي لم يوجد بعد كان ذلك أبلغ وأوكد في تحقيق الفعل وإيجاده؛ لأن الفعل الماضي يعطي من المعنى أنه قد كان ووجد، وإنما يفعل ذلك إذا كان الفعل المستقبل من الأشياء العظيمة التي يستعظم وجودها".

وأفاد الفعل المضارع "ينفخ" استحضار صورة الحدث من المستقبل البعيد وهو يوم القيامة حتى لكأنها ماثلة أمام الأنظار، فكما أفاد المضارع في سياقات سابقة استحضار صورة الحدث من الماضي السحيق، كذلك أفاد هنا استحضار الصورة من المستقبل البعيد، ويجمع الاستحضارين عنصر الزمن، وهناك فرق بينهما، فاستحضار الماضي استرجاع لزمن قد حدث بالفعل لإفادة تصويره في النفس، واستحضار المستقبل استباق للزمن كون الحدث لم يحصل لإفادة تحقق وقوعه.

68- انظر: الكشاف، 161/3.
69- المثل السائر، 198/2.

ونجد -أيضاً- في هذا السياق أن الفعلين المضارع "ينفخ" والماضي "ففزع" قد استعملا للإخبار عن المستقبل، ولكن تختلف دلالتاهما، فدلالة المضارع في الإخبار عن المستقبل تفيد استحضار صورة الحدث، ودلالة الماضي تفيد تحقق حدوثه وحصوله.

ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ * إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَاتَّبَعُواْ أَمْرَ فِرْعَوْنَ وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ * يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَبِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ﴾ (هود، **96-98**).

لقد تحول السياق عن المضارع "يقدم" إلى الماضي "فأوردهم"، ولو جرى على مقتضى الظاهر لكان على النحو: "سيقدم قومه يوم القيامة وسيوردهم النار"؛ لأن الحديث عن زمن مستقبل وهو يوم القيامة، ومجيء التحول إلى الماضي (فأوردهم) فيه دلالة على القطع والتأكيد بوقوع الحدث وحصوله، وصُدِّرَ الفعل بحرف (الفاء) ليدل على سرعة الورود؛ لما في ذلك من التهديد والتخويف.

وهذا النوع من التحول يخبر عن نتائج محققة لأحداث سابقة لها، تحمل طابع الدهشة والمفاجأة، فَفَزَعُ من في السموات والأرض حدث مفاجئ مترتب على النفخ في الصور، وكذلك ورود فرعون وقومه النار يعقب مشهد قدومه لهم إلى ساحة الحشر بذلة وصغار[70]. ويرد غالباً في مشاهد البعث والقيامة والحشر؛ لذا أضفى عليها الأسلوب القرآني زمن الماضي في حدوثها لتأكيد تحققها وحصولها[71]

ويرد التحول إلى الماضي للدلالة على أنه سابق للمضارع في التحقق والحصول، من ذلك قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ وَتَرَى الأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا﴾ (الكهف، **47**).

فقد جيء بـ (حشرناهم) ماضياً بعد (نسير) "للدلالة على أن حشرهم قبل التسيير وقبل البروز ليعاينوا تلك الأهوال العظائم، كأنه قيل: وحشرناهم قبل ذلك".[72]

70- انظر: الزمن واللغة، 72.
71- انظر: من أساليب التعبير القرآني، طالب الزوبعي، 153.
72- انظر: الكشاف، 487/2.

ومنه قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيداً عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيداً عَلَى هَـؤُلاء وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَاناً لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ﴾ (النحل، **89**). جاءت هذه الآية في سياق ذكر بعث الأنبياء والرسل شهداء على قومهم، وخصص خاتم الرسل بمزيد عناية وتكريم بأن جعله الله عزوجل شهيداً على هذه الأمم كلها، وهو ما ذهب إليه بعض المفسرين [73]، ويدل على هذه العناية أيضاً تحول الخطاب للرسول بعد الإخبار عن البعث بالغيبة "وجئنا بك"، والتحول المعجمي عن كلمة البعث إلى المجيء، وفي "إيثار لفظ المجيء على البعث لكمال العناية بشأنه-"[74]. وفيه التحول الذي نحن بصدده عن الفعل المضارع "نبعث" إلى الماضي "جئنا"، وفي كل ذلك "إشعار بأفضليته على سائر المرسلين، وأفضلية شهادته في هذا اليوم على شهاداتهم، وأنه لهذا وذاك يجاء به شاهداً قبل بعث هؤلاء الرسل في أممهم شهداء".[75]

لقد أفاد التحول إلى الماضي في هذا السياق أن الفعل الماضي سابق للمضارع في تحققه وحصوله، فقوله: "وجئنا بك على هؤلاء شهيداً" أي: وجئنا بك شهيداً قبل أن نبعث في كل أمة شهيداً عليهم.

ومنه قوله تعالى: ﴿إِن يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاء وَيَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِالسُّوءِ وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ﴾ (الممتحنة، **2**)، فنجد التحول عن الفعل المضارع الواقع جواباً للشرط "يكونوا ويبسطوا" إلى الماضي "وودّوا".

ويعلل الزمخشري هذا التحول فيقول[76]: "والماضي وإن كان يجري في جواب الشرط مجرى المضارع في علم الإعراب، فإن فيه نكتة، كأنه قيل: وودّوا قبل كل شيء كفركم وارتدادكم، يعني: أنهم يريدون أن يلحقوا بكم مضار الدنيا والدين جميعاً من قتل الأنفس، وتمزيق الأعراض وردِّكم كفاراً، وردُّكم كفاراً أسبق المضار عندهم؛ لعلمهم أن الدين أعز عليكم من أرواحكم؛ لأنكم بذالون لها دونه، والعدو أهم شيء عنده أن يقصد أعزّ شيء عند صاحبه".

73- انظر: تفسير أبي السعود، 135/5، وروح المعاني، 213/14.
74- تفسير أبي السعود، 135/5.
75- أسلوب الالتفات، ص 100.

وقد بين الزمخشري في هذا السياق نكتة التحول، من زاوية النظر إلى عنصر الزمن، وذلك من كون الماضي أسبق في الحصول من المضارع، ونجد بالمقابل السكاكي (ت **626** هـ) وأبا السعود (ت **951**هـ) وغيرهما يفسرون هذا التحول من زاوية النظر إلى الحدث، فالماضي يدل على تحقق الحدث وحصوله لا محالة، يقول السكاكي[77]: "وترك يود إلى لفظ الماضي؛ إذ لم تكن تحتمل ودادتهم لكفرهم من الشبهة ما كان يحتملها كونهم -أي يثقفوهم- أعداء لهم، وباسطي الأيدي والألسنة إليهم للقتل والشتم".

ويفيد حرف الشرط (إنْ) الداخل على الفعل المضارع "يثقفوكم" الشك في وقوع الحدث، فظفر الكفار بالمسلمين ليس مؤكداً فهو متوقف على مدى تمسكهم بدينهم قوة وضعفا، وهذا يختلف من حال إلى حال، في حين أن ودادة أعدائهم كفرهم أمر محقق وحاصل في كل حال، سواء قبل الظفر بهم أم بعده، فليس متعلقاً بالشرط ومترتباً عليه، فدل التحول إلى الماضي على تحققه في الحدوث وحصوله سابقاً للشرط والجواب، ولو جاء مضارعاً لأوهم تعلقه بالشرط، فيكون وُدُّ أعدائهم كفرهم أمراً حاصلاً بعد الظفر بهم لا غير، يقول أبو السعود[78]: "وودّوا لو تكفرون" أي: تمنوا ارتدادكم، وصيغة الماضي للإيذان بتحقق ودادتهم قبل أن يثقفوهم أيضاً".

ونجد أن الآية السابقة لهذه الآية وهي قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاء تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءكُم مِّنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَن تُؤْمِنُوا بِاللهِ رَبِّكُمْ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَاداً فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاء مَرْضَاتِي تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنتُمْ وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلّ سَوَاء السَّبِيلِ﴾ (الممتحنة، **1**). جاء التعبير فيها عما قد يصدر من المسلمين من ودٍ للكفار بصيغة الفعل المضارع "تلقون إليهم بالمودة"، و"تسرون إليهم بالمودة" وذلك في سياق نهي المؤمنين عن فعل ذلك، في حين ورد التعبير عما يوده الكفار للمؤمنين من ارتداد عن دينهم بالفعل الماضي "وودّوا لو تكفرون" وفي ذلك "إبراز للمفارقة أو البون الشاسع بين ما قد يصدر من المسلمين من مولاة هؤلاء، وما يضمره الكفار لهم من ضغينة وحسد"[79]. وذلك أن دلالة

76- الكشاف، 90/4.
77- مفتاح العلوم، 240.
78- تفسير أبي السعود، 236/8.
79- انظر: أسلوب الالتفات، ص 100.

المضارع تفيد التجدد، في حين أن الماضي "وودّوا لو تكفرون" أفاد التحقق والرسوخ -كما أوضحنا سابقاً- فكأن السياق القرآني يخاطب المسلمين قائلاً لهم: إنه مهما تجددت هذه المودة من قبلكم واستمرت لهؤلاء الكفار سراً أو علانية، فإنها لن تغير ما استقر في قلوبهم ونفوسهم من كراهيتكم ورغبتهم في ارتدادكم عن دينكم الذي تنعمون به دونهم.

الصورة الثالثة: التحول من الماضي إلى الأمر:

ويمثل الفعل الماضي في هذه الحالة (جملة خبرية) في حين يمثل فعل الأمر جملة (إنشائية طلبية)، "والتحول عن الأسلوب الخبري إلى الأسلوب الإنشائي يهدف إلى تحقيق أغراض بلاغية تتوزع على الوظيفة الانفعالية (المتكلم) والوظيفة الإفهامية (المتلقي) كدلالة الرضا بالواقع الصياغي حتى كأنه مطلوب تحقيقه في الواقع بالفعل"[80].

من ذلك قوله تعالى: ﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وأَقِيمُواْ وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾ (الأعراف: **29**).

إذ حصل التحول في هذا السياق من الماضي إلى الأمر (وأقيموا) "ولو جاء السياق على أسلوب واحد، لقال: (أمر ربي بالقسط وأمركم أن تقيموا وجوهكم)"[81].

وندرك سر هذا التحول من ارتباط هذه الآية بما قبلها، إذ هي رد على مقولة الكفار التي ذكرها المولى عزوجل بقوله: ﴿وَإِذَا فَعَلُواْ فَاحِشَةً قَالُواْ وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءنَا وَاللّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللّهَ لاَ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاء أَتَقُولُونَ عَلَى اللّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ﴾ (الأعراف: **28**).

وجاء الحديث عن الأمر بالقسط بأسلوب خبري، وإن كان متضمناً معنى الإنشاء (أمر ربي بالقسط) إذ معنى ذلك (أقسطوا) ولكنه جاء بأسلوب خبري ولم يأتِ أمراً مباشراً.

فلم يقل: "قل أقسطوا وأقيموا" وذلك للدلالة على أمرين:

الأول: أن فعل الماضي في (أمر ربي بالقسط) يدل على تحقق ذلك الأمر وحصوله، فهو "مبدأ موغل في القدم، به قام ميزان السماوات والأرض، ولذلك أسند الفعل الماضي

80- تحولات البنية في البلاغة العربية، 132.
81- الطراز: 137/2.

إلى الذات العلية (ربي)، ليعمق الإحساس بالقدم والتمام، لأن الأمر صدر عن الذات الأزلية".[82]

والثاني: أن القسط هو ما أمر الله به وشرَعَه، سواء التزموا به أم لم يلتزموا، فلا يغير ذلك من أمره شيئاً، فهو أمر أزلي استقام عليه أمر الكون والحياة، ولو قال: "أقسطوا" لكان الأمر موجهاً إليهم على وجه الخصوص، ولم يفد تحققه في الزمن الماضي واستمراره في الحاضر والمستقبل، فالفعل (أمر) فعل سلب منه الزمن، فهو دال على الأمر بالقسط مطلقاً، ثم تحول إلى الأمر (وأقيموا) للدلالة على أنه ما دام أمر الله بالقسط أمراً أزلياً كوناً وشرعاً، فحقكم أن تنفعلوا لأمره الكوني، ومراده الشرعي، فتحققوا معنى القسط في حياتكم بإقامة وجوهكم للصلاة له عند كل مسجد.

ومن دلالات هذا التحول الدلالة على سرعة تحقق الحدث وحصوله. من ذلك قوله تعالى مخاطباً بني إسرائيل: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَواْ مِنكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُواْ قِرَدَةً خَاسِئِينَ* فَجَعَلْنَاهَا نَكَالاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾ (البقرة: **65-66**).

نجد السياق كله يدل على أن الأحداث الواردة فيه قد حصلت في الزمن الماضي، بقرائن لفظية: (ولقد علمتم، اعتدوا، فجعلناهم، فقلنا، فجعلنا)، فالزمن المسيطر على السياق هو زمن الماضي، ولكن السياق عدل عن الفعل الماضي إلى الأمر بقوله: "كونوا قردة"؛ لأن في الأمر "كونوا" شداً للانتباه بالتحول الحاصل في السياق؛ مما جعل الأمر مركزاً على بؤرة الحدث الهامة وهي تحول ذواتهم إلى قردة خاسئين، وفيه دلالة على سرعة تحقق الحدث وحصوله مستمداً ذلك من قدرة الآمر عزوجل- القائل للأشياء: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ (يس: **82**)، وكأن المولى -عزوجل- قد أمر الحدث نفسه أن يكون فكان، فإذا بذواتهم قد انفعلت لهذا الأمر الإلهي على وجه السرعة فانمحت معالم البشرية والإنسانية منهم ليصبحوا مسخاً حقيقياً حاصلاً فيهم، ففي الأمر دلالة على قوة إيقاع الحدث وتحققه لا تكون في الماضي في ما لو كان السياق

82- تحولات البنية في البلاغة العربية، 324.

على نحو "فجعلناهم قردة خاسئين"؛ لأن الأمر يدل على شدة غضب الجبار عليهم، وصدور الأمر منه على وجه السرعة والقوة والجبروت.

وهذا السياق سياق تحول وتغيير، فكما حصل تحول في أشكالهم وذواتهم رافق ذلك تحول في التعبير عن ذلك الحدث، فوافق تحولَ المبنى تحولٌ في المعنى.

وقد يرد التحول إلى الأمر للدلالة على كيفية وقوع الحدث، كما في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللهُ مُوتُواْ ثُمَّ أَحْيَاهُمْ إِنَّ اللهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَـكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَشْكُرُونَ﴾ (البقرة: **243**).

يخبر السياق عن حدث مضى، وكان يقتضي أن يكون "فأماتهم الله ثم أحياهم"، ولكنه تحول من الماضي إلى الأمر "موتوا"، للدلالة على أن الحدث قد وقع بسرعة وقوة شملت جميع المخاطبين فلم يتخلف عنه أحد، وأن الموت قد تلبسهم جميعاً في لحظة واحدة، ولو قال: "فأماتهم" لما كان في الماضي دلالة على ذلك، ولكان المعنى أنهم قد ماتوا فحسب، يقول الزمخشري (ت **538**هـ)[83]: "فقال لهم الله موتوا ثم أحياهم"، فإن قلت: ما معنى قوله: فقال لهم موتوا قلت: معناه فأماتهم، وإنما جيء به على هذه العبارة للدلالة على أنهم ماتوا ميتة رجل واحد بأمر الله ومشيئته، وتلك ميتة خارجة عن العادة كأنهم أمروا بشيء فامتثلوه امتثالاً من غير إباء ولا توقف كقوله تعالى: "إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون".

ثم مثّل الفعل الماضي "فأحياهم" تحولاً من الأمر إلى الماضي، لدلالة توحي بأن القدرة الإلهية هي التي أحيت كما أماتت، إذ ليس بمقدور الأموات أن يكونوا أهلاً للخطاب وتوجيه الأمر إليهم فيما لو قال ثم (احيوا) وفيه إشارة إلى مطل الزمن مع التراخي الذي يشي به الحرف (ثم) مع فعل الإحياء، حتى يشاهد بعضهم بعضاً لحظة الإحياء فيكون ذلك أشد وقعاً على النفس وأثراً.

ويرد التحول من الماضي الذي يمثل جملة خبرية إلى فعل الأمر الذي يمثل جملة إنشائية بقصد التفريق بين مضمونهما، منه قوله تعالى: ﴿وَأُحِلَّتْ لَكُمُ الْأَنْعَامُ إِلَّا مَا يُتْلَى

83- الكشاف، 1/377-378.

عَلَيْكُمْ فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ﴾ (الحج: **30**).

حقق التحول من الماضي (أُحِلّتْ) الذي هو جملة خبرية إلى الأمر (فاجتنبوا الرجس ...) الذي يمثل جملة إنشائية طلبية دالة التفريق بين الخبر والإنشاء، فالخبر بصيغة الماضي في قوله تعالى: "وأحلت لكم بهيمة الأنعام" يشير إلى تحقق حصول الحل وتلبسهم به منذ زمن، وفي ذلك مزيد فضل عليهم وامتنان، ثم استثنى مما أحله من الأنعام ما يتلى عليهم فأتى بصيغة المضارع، وحقه أن يأتي بالماضي لمطابقة السياق فيكون "إلا ما تلي عليكم".

فأفاد المضارع هنا الاحتراز؛ أي: ما يتلى عليكم من المحرمات في هذه الآيات وما سيعقبها من محرمات لاحقة لا ما قد ذكر في آيات سابقة فحسب، ثم عدل عن الإخبار إلى الإنشاء والطلب فقال: "فاجتنوا الرجس من الأوثان"، وفي التحول عن الإخبار إلى الإنشاء، وهما أسلوبان مختلفان من أساليب العربية إشارة إلى اختلاف مضمونها مبنىً ومعنىً، فالحلال يختلف تماماً عن الحرام وبينهما بون شاسع، لذلك حسن مجي الأمر بالاجتناب ليكون هذا التحول في الأسلوب لافتاً للنظر إلى الاختلاف بينهما، وأن الرجس من الأوثان وقول الزور لا يدخلان في الحلال. ولو جاء السياق على نسق واحد من الإخبار، فقال: "وأحلت لكم بهيمة الأنعام وحرم عليكم الرجس من الأوثان وقول الزور"، لما كان فيه من الدلالة المذكورة في المفارقة ما في هذا التعبير. وازداد الانفتاح الدلالي بإيجاد العلاقة السببية بين الأسلوبين، فكأن السياق القرآني يشير أيضاً إلى أن امتثال أوامر الله -عزوجل- هي سبب في حفظ ما أحله الله، وسبب في بقاء نعمته على العبد، فبينهما علاقة السببية من وجه والمفارقة من وجه آخر.

الصورة الرابعة: التحول عن المضارع إلى الأمر

ويقع التحول عن المضارع إلى الأمر؛ للدلالة على اختلاف الفعلين، نحو قوله تعالى حكاية عن هود عليه السلام وقومه: ﴿قَالُواْ يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ * إِن نَّقُولُ إِلاَّ اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوَءٍ قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللهَ وَاشْهَدُواْ أَنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾ (هود: **53-54**). فأتى بالفعل المضارع ابتداء فقال:

"أُشْهِدُ الله" ثم تحول عنه إلى فعل الأمر عند مخاطبة قومه فقال: (واشهدوا)، ولم يقل: "وأُشْهِدُكم" فخالف في المطابقة بين الأفعال، فقد تضمن هذا السياق تحولًا عن صيغة المضارع (أشهد الله) إلى صيغة الأمر (واشهدوا)، وذلك لإبراز البون الشاسع بين الإشهادين، فإشهاده الله إشهاد صحيح وثابت عن اعتقاد ويقين، وإشهاده إياهم ليس إشهاداً حقيقياً وإنما هو على سبيل السخرية والتهكم والتحدي لإرادتهم[84]، لذا أتى به بصيغة الأمر (واشهدوا) ليشير إلى الهوة الكبيرة بين الطرفين: طرف آمر وحقه أن يطاع وهو (هود) عليه السلام، وطرف آخر مأمور حقير الشأن وهم قوم هود.

ففي الأمر (اشهدوا) دلالة واضحة على البراءة التامة بين الطرفين وعلى التحدي القوي من قبل نبي الله هود لقومه، فأبرز هذا التحول "مواقف الطرفين المتباعدين عن طريق ذكر صيغة المضارع التي توضح تشريف الطرف الأول وقوته وعظمته ثم التحول عنها إلى صيغة الأمر الدالة على حقارة شأن الطرف الثاني وبطلان موقفهم الذليل"[85].

ويرى ابن المنيّر أنه (ت **689**هـ)[86]: "يحتمل أن يكون إشهاده لهم حقيقة والغرض إقامة الحجة عليهم، وإنما عدل إلى صيغة الأمر عن صيغة الخبر للتمييز بين خطابه لله تعالى وخطابه لهم، بأن يعبر عن خطاب الله تعالى بصيغة الخبر التي هي أجل وأوقر للمخاطب من صيغة الأمر".

وقد يتحول عن المضارع إلى الأمر للدلالة على أن الفعل المضارع يراد به الأمر، من ذلك قوله تعالى: (وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الأَمَوَالِ وَالأنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ) (البقرة: **155**). أتى بالفعل المضارع المؤكد (ولنبلونكم) ثم تحول عنه إلى فعل الأمر (وبشر الصابرين)، ولم يقل: (ولنُبَشِّرَنّ الصابرين) حتى يكون السياق مطرداً على نسق المضارع المؤكد على نحو: (ولنبلونكم ... ولنبشرنّ). ويرى الألوسي (ت **1270**هـ) أن قوله: (وبشر الصابرين) معطوف على (ولنبلونكم) من قبيل عطف المضمون على المضمون، "أي: الابتلاء حاصل لكم وكذا البشارة، لكن لمن صبر منكم"[87].

84- انظر: الكشاف، 276/2.
85- تحولات البنية في البلاغة العربية، 326.
86- حاشية ابن المنير على الكشاف، 276/2، وانظر: المثل السائر، 193/2.
87- انظر: روح المعاني، 23/2.

وهذا العطف بين الإنشاء والخبر هو ما عرف عند الزمخشري بعطف القصة على القصة، فالزمخشري لا يمنع عطف الإنشاء على الخبر ما دام المعتمد بالعطف هو مضمون الجمل لا الألفاظ، وحينئذ لا تطلب المشاكلة بين الألفاظ، وإنما تطلب المناسبة بين المعاني"[88].

"فهو عطف معنى الكلام ومفهومه ومضمونه الكلي المنبثق من جزئيات متعددة مختلفة الصور خبراً وإنشاء على مضمون كلي مثله"[89].

والذي يظهر أن قوله تعالى: "ولنبلونكم" فيه معنى إنشائي، هو طلب الصبر منهم على البلاء؛ لأن الإخبار بذلك مآله طلب الصبر على ذلك البلاء، فيكون (بشر) معطوفاً على (لنبلونكم) لما فيه معنى الطلب، "ولكنه عدل عن أن يقال: فاصبروا وأبشروا إلى ما عليه النظم؛ ليكون الخبر المؤكد في (لنبلونكم) مفجراً الرغبة والعزم على الصبر ومقابلة البلاء به"[90].

ومنه قوله تعالى: ﴿قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيّاً﴾ (مريم: **46**). ففي هذه الآية تحول عن الفعل المضارع (أرجمنك) إلى الأمر (واهجرني) ولم يقل: (ولأهجرنّك). وقد علل الزمخشري وغيره أن فعل الأمر (اهجرني) "معطوف على محذوف يدل عليه لأرجمنك؛ أي: فاحذرني واهجرني؛ لأن لأرجمنك تهديد وتقريع"[91].

فالفعل (لأرجمنك) فيه تهديد ووعيد بإبراهيم -عليه السلام- مضمونه إنشاء، يراد به تحذيره من سب آلهتهم المزعومة، وكأنه يقول: إذا لم تنته فاحذرني.

الصورة الخامسة: التحول عن الأمر إلى الماضي

منه قوله تعالى: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْناً وَاتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّ

88- انظر: البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري، 533.
89- مسالك العطف بين الإنشاء والخبر، 16.
90- السابق، 20.
91- انظر: الكشاف، 511/2، والمحرر الوجيز، 34/11، ونظم الدرر، 206/12، وتفسير أبي السعود، 268/5، ومسالك العطف بين الإنشاء والخبر، 38.

وَعَهِدْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾ (البقرة: **125**).

في هذا السياق القرآني تحولان: تحول عن الماضي (جعلنا) إلى الأمر (اتخذوا)، ثم إلى الماضي (عهدنا)، ففعل الأمر (اتخذوا) مثل تحولًاعن الأصل السياقي وهو الفعل الماضي (جعلنا)، ثم أصبح يمثل أصلاً سياقياً جديداً للفعل الماضي (عهدنا) فمثل الفعل (عهدنا) تحولًا عن الأمر إلى الماضي.

والتحول عن الماضي (جعلنا) إلى فعل الأمر (اتخذوا) فيه شد لانتباه المتلقي للنص القرآني، وذلك "لتقوية" روابط الاتصال بينه وبين النص؛ لأن السياق القصصي المروي ليس غريباً عنه، وإنما يحتوي على أمور تهمه وتتصل به، يجب الحرص عليها وإحياؤها، لتكون مسيرته موصولة بتراث سابقيه"[92].

ويرى الزمخشري[93] أن هناك فعلاً ماضياً محذوفاً تقديره: "قلنا" قبل فعل الأمر (اتخذوا)، أي: وقلنا اتخذوا، وذلك لاطراد الأفعال الماضية في السياق، ولتختفي المخالفة في الأفعال، والحقيقة أن الحذف نفسه على -رأي الزمخشري- قد أظهر فعل الأمر بارزاً في السياق لدلالة مرادة ينبغي التوقف عندها وفهمها، وهي -كما ذكرنا- مقصود منها شد انتباه المتلقي للعمل بهذا التوجيه الإلهي من اتخاذ مقام إبراهيم مصلى، ثم استمر السياق في السرد الحكائي للأحداث الماضية بعد ذلك.

ويحسن التنويه في هذا السياق إلى قراءة نافع وابن عامر بصيغة الماضي (واتّخَذُوا) بفتح الخاء، وعلى هذه القراءة ينتفي التحول، إذ يصبح السياق كله سياق سرد ماضٍ، وتمثل كل قراءة وجهاً من وجوه الإعجاز البياني في القرآن الكريم، فورود القراءة بصيغة الماضي (واتّخَذُوا) تفيد الإخبار عن الأمم السابقة من المؤمنين أنهم اتخذوا من مقام إبراهيم مصلى. ويرى ابن خالويه (ت **370**هـ)[94]: "أن الله أمر بذلك المسلمين من هذه الأمة مبتدئاً ففعلوا ما أمروا به فأثنى بذلك عليهم وأخبر به، وأنزله في العرضة الثانية".

92- تحولات البنية في البلاغة العربية، 327.
93- انظر: الكشاف، 310/1.
94- الحجة في القراءات السبع، 87.

فتكون القراءة بالإخبار عن وقوع الفعل قد تنزلت بعد قراءة الأمر به، وترتبت عليها، فجمع نسق الآية هذين المعنيين بقراءتيه، أي: قال لهم المولى عزوجل: اتخذوا من مقام إبراهيم مصلى فاتخذوه مصلى.

الصورة السادسة: التحول عن فعل الأمر إلى المضارع

قد يأتي فعل الأمر ابتداء ثم يُتحوّل عنه إلى الفعل المضارع؛ فيكون في المضارع مزيد حث على تنفيذ هذا الأمر، وذلك من خلال استحضاره مشهد الحدث، نحو قوله تعالى: ﴿وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ * وَأَنْ أَقِيمُواْ الصَّلاةَ وَاتَّقُوهُ وَهُوَ الَّذِيَ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ (البقرة:**71-72**). أي: أن المتوقع في السياق اللغوي وفق مطابقة الأزمنة في الأفعال أن تكون على نحو:

(وأمرنا لنسلم لرب العالمين وأن نقيم الصلاة ونتقيه؛ لأنه هو الذي إليه نحشر). وبذلك تطرد الأفعال على نسق واحد وهو زمن المضارع، إلا أن السياق في بنيته قد أبرز فعل الأمر (أقيموا، واتقوه) ليجسم معنى الفرض، والوجوب عند ذكر الصلاة والتقوى، ثم تحول إلى المضارع (تحشرون) ليفيد الاستحضار الدائم لمشهد الحشر المستقبلي بأهواله الجسام، وجعله متجدداً دائماً أمام عين المتلقي، لكي يقبل بهمة على تنفيذ الأوامر السابقة وهي الإسلام، وإقامة الصلاة، والتقوى[95].

وقد يرد التحول عن الأمر إلى المضارع؛ للدلالة على أن الأمر في معنى الخبر لا الطلب، من ذلك قوله تعالى: ﴿قُلْ مَن كَانَ فِي الضَّلَالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَنُ مَدّاً حَتَّى إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ إِمَّا الْعَذَابَ وَإِمَّا السَّاعَةَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَّكَاناً وَأَضْعَفُ جُنداً * ويَزِيدُ اللهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى﴾ (مريم: **75-76**). إذ جاء السياق القرآني بفعل الأمر (فليمدد) ثم تحول عنه إلى المضارع (ويزيد) ولو جاء السياق على نسق واحد لكان (فليمدد له الرحمن مدا ... وليزد الله الذين اهتدوا هدى) ويكون في الفعلين حينئذ معنى الدعاء (فليمدد وليزد)، لكن السياق خالف بينهما؛ للدلالة على أن فعل الطلب (فليمدد) يراد به الخبر لا الإنشاء.

95- انظر: السابق، 329، والفتوحات الإلهية، 47/2.

يقول الزمخشري[96]: "(ويزيد) معطوف على موضع فليمدد؛ لأنه واقع موقع الخبر، تقديره: من كان في الضلالة مدّ أو يمد له الرحمن ويزيد" وعندئذ يصبح السياق مطرداً تقديره من كان في الضلالة يمد له الرحمن مدا .. ويزيد الله الذين اهتدوا هدى.

فيكون الطلب قد وضع موضع الخبر، أي: جيء بالطلب والمراد به الخبر، وإنما تحول به عن أسلوب الخبر إلى الإنشاء الطلبي؛ مبالغة في تأكيد ذلك وحصوله وكأنه أمر واجب تحققه ووقوعه[97].

96- الكشاف، 522/2، وانظر: تحولات البنية، 132
97- انظر: الكشاف، 521/2.

المبحث الثاني
التحول في الأسماء

يبرز التحول في الأسماء جلياً في المخالفة بين الضمائر، والتحول عن الضمير إلى الاسم الظاهر لا العكس، إذ التحول عن الاسم إلى الضمير بعد ذكر الاسم سابقاً هو ما يقتضيه الاستعمال اللغوي، وكذلك يرد التحول في أسماء الإشارة والأسماء الموصولة بالمخالفة بينها، وهذا النوع من التحول وجدناه واضحاً في سياق التعبير القرآني، على النحو الآتي:

أولاً: التحول في الضمائر

المقصود بالتحول في الضمائر: "هو التحول عن ضمير أصلي إلى ضمير آخر يغايره في الحضور أو الغيبة ويشترك وإياه في العودة إلى مفسر واحد"[98]. وعرف هذا النوع من التحول عند علماء البلاغة قديماً بالالتفات[99]، وهذا الضرب من التحول، ناتج عن الانتقال في استعمال الضمائر من حضور إلى غيبة أو تكلم، وهكذا، وقد تناول علماء اللغة والبلاغة قديماً هذه الظاهرة بالتحليل والتفسير، فيرى ابن جني أن التحول في الضمائر يحقق وظيفة بلاغية ينبغي الوقوف على مغزاها واستكناه السر الذي يدعوا المتكلم إلى المخالفة بينهما والخروج بها عن مقتضى الظاهر، وانتقد ابن جني الرأي القائل إن هذا التحول ضرب من الاتساع في العربية، فيقول[100]: "وليس ينبغي، أن يُقْتَصرَ في ذكر علة الانتقال من الخطاب إلى الغيبة ومن الغيبة إلى الخطاب بما عادة توسط أهل النظر أن يفعلوه، وهو قولهم: إن فيه ضرباً من الاتساع في اللغة لانتقاله من لفظ إلى لفظ، هذا

98- انظر: الالتفات في القرآن، الشاذلي الهيشري، 169، حوليات الجامعة التونسية، ع 32، تونس، 1991.

99- انظر: في ذلك: ما ذكره الدكتور محمد بركات أبو علي عن (الالتفات) في كتابيه: دراسات في البلاغة، 125-164، والبلاغة العربية في ضوء منهج المتكامل، ص 71-76. فقد استقرأ مواطن الالتفات في كتب الإعجاز وعلوم القرآن خاصة (بديع القرآن) و(البرهان) و(الإتقان)، ووجد أن أغلب هذه الآيات ترتبط بالنفس الإنسانية وخلجاتها وتعالج بناء العقيدة الدينية والدعوة إلى التوحيد ونفي الشرك، ووضع الأسس العامة التي يقوم عليها المجتمع، وفضح جرائم المشركين في سفك الدماء، ...، والآيات المدنية التي وردت لا تخرج عن هذه التسمية، التي اتصفت بها الآيات المكية، إذ تغلب عليها أن تكون قصيرة ذات وقع معين في الأذن والنفس، تبعث على الرهبة والخشية، وتشعر بمعنى الجلال والجبروت، (البلاغة العربية في ضوء منهج متكامل، 76، ودراسات في البلاغة، 158).

100- المحتسب، 240/1، ت: محمد عبد القادر عطا.

ينبغي أن يقال: إذا عَرِيَ الموضع من غرض معتمد، وسر على مثله تنعقد اليد".

وقد بسط مذهبه في توجيه هذه الظاهرة في كتابه المحتسب[101]، ولا شك أن وراء تحويل الخطاب والتحول في الضمائر مغزى أكثر وجاهة من علة التوسع في اللغة، ورأي ابن جني وجيه في ذلك، وعلى نهجه درج الزمخشري وابن الأثير ومن جاء بعدهم من علماء البلاغة واللغة، فهذا ابن الأثير يردد فحوى كلام ابن جني فيقول[102]: "اعلم أن عامة المنتمين إلى هذا الفن إذا سئلوا عن الانتقال عن الغيبة إلى الخطاب، وعن الخطاب إلى الغيبة، قالوا: كذلك كانت عادة العرب في أساليب كلامها، وهذا القول عكاز العميان، كما يقال، ونحن إنما نسأل عن السبب الذي قصدت العرب ذلك من أجله، ... إن الانتقال من الخطاب إلى الغيبة أو من الغيبة إلى الخطاب لا يكون إلا لفائدة اقتضتها، وتلك الفائدة أمر وراء الانتقال من أسلوب إلى أسلوب، غير أنها لا تحد بحد، ولا تضبط بضابط، لكن يشار إلى مواضع منها؛ ليقاس عليها غيرها، فإنا قد رأينا الانتقال من الغيبة إلى الخطاب قد استعمل لتعظيم شأن المخاطب، ثم رأينا ذلك بعينه -وهو ضد الأول- قد استعمل في الانتقال من الخطاب إلى الغيبة، فعلمنا حينئذ أن الغرض الموجب لاستعمال هذا النوع من الكلام لا يجري على وتيرة واحدة، وإنما هو مقصور على العناية بالمعنى المقصود".

ولأهمية هذا التحول فقد أولاه المفسرون والبلاغيون جهداً من التأمل وإمعان النظر، فجاؤوا بدقائق المعاني في ذلك، ولطائف التأويل، وهو ما سنعرض لبعض تحليلاتهم في هذا المبحث. ويُظهر تتبع هذا التحول في السياق القرآني، أن صوره تتفاوت نماذجها من حيث الكثرة والقلة[103]، فبينما تكثر نماذج التحول عن الغيبة إلى الخطاب، والتحول عن الغيبة إلى التكلم، تقل بالمقابل نماذج التحول عن الخطاب إلى الغيبة وعن التكلم إلى الغيبة، وأما التحول عن التكلم إلى الخطاب وعكسه فنادر الوقوع. وهذا التفاوت ربما يهدينا إلى ملحظ أسلوبي يحكم هذه الظاهرة القرآنية على عمومها وهو أن حديث

101- انظر: السابق، 1/239-241.

102- المثل السائر، 2/181-183.

103- ورد التحول عن الغيبة إلى الخطاب (41) مرة، وعن الغيبة إلى التكلم (93) مرة، وعن الخطاب إلى الغيبة (38) مرة، ومن التكلم إلى الغيبة (11) مرة، (من دون اعتبار الاسم الظاهر غيبة)، ومن الخطاب إلى التكلم (3)، ومن التكلم إلى الخطاب مرة واحدة، (من دون الآيات المتشابهة).

الخطاب والتكلم فيه شد لانتباه المتلقي إلى تأمل المعاني التي تتعلق بها مواضع التحول، والتفكير في الأغراض التي تنعقد عليها ترغيباً أو ترهيباً في مقامات الوعد أو الوعيد[104].

وهو يشكل ست صور على النحو الآتي:

1. التحول من التكلم إلى الخطاب.
2. التحول من التكلم إلى الغيبة.
3. التحول من الخطاب إلى التكلم.
4. التحول من الخطاب إلى الغيبة.
5. التحول من الغيبة إلى التكلم.
6. التحول من الغيبة إلى الخطاب.

الصورة الأولى: التحول من التكلم إلى الخطاب

هذه الصورة يندر تحققها في لغة الكلام، لأنه لا يتصور أن يكون الشخص الواحد إلا على نحو من أنحاء التجوز-متكلماً ومخاطباً، أو مرسلاً ومستقبلاً في آن واحد"[105].

لذلك لم يرد إلا موضع واحد لهذا التحول في القرآن الكريم، وهو قوله تعالى: (وَمَا لِي لاَ أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ) (يس: **22**). فقد جاء بضمير المتكلم ابتداء فقال: "ومالي لا أعبد الذي فطرني"، ثم تحول عن ذلك إلى ضمير المخاطب، فقال: "وإليه ترجعون"، ومقتضى السياق في المشاكلة بين الضمائر أن يكون على نحو "وإليه أرجع".

وإنما ترك و"إليه أرجع" إلى "وإليه ترجعون" ليفيد التلطف في توجيه قومه، وإعلامهم توحد مصيره مع مصائرهم، وتنبيههم إلى أنه مثلهم في وجوب عبادة من إليه المرجع والمآل"[106].

104- التوجيه البلاغي للقراءات، أحمد السعد، 323.
105- أسلوب الالتفات في البلاغة القرآنية، 148.
106- انظر: البرهان في علوم القرآن، 316/3.

الصورة الثانية: التحول من التكلم إلى الغيبة

ويرد هذا النوع من التحول لدلالات عديدة، من ذلك دلالة التفريق بين ما هو محسوس مشاهد وما ليس بمحسوس، نحو قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجاً سُبُلاً لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ * وجَعَلْنَا السَّمَاء سَقْفاً مَّحْفُوظاً وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ * وهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ (الأنبياء: **31-33**).

إذ جاء السياق في معظمه بضمير التكلم (جعلنا في ... الأرض فيها ... وجعلنا السماء...) ثم تحول إلى الغيبة فقال: (وهو الذي خلق ...) وقد صاحب هذا التحول في الضمير تحول معجمي تمثل في إيثار الفعل (خلق) على الفعل (جعل) فما العلاقة بين هذا التحول المعجمي والتحول عن ضمير التكلم إلى الغيبة؟

وللإجابة عن ذلك يجب أن نعرف الفرق الدلالي بين الفعلين (جعل) و(خلق). يرى الراغب الأصفهاني [107] : أن الفعل (خلق) يستعمل في إبداع الشيء من غير أصل سابق له ولا نظير، بينما الفعل (جعل) يراد به التصيير والنقل من حالة إلى حالة، وعليه فإن مرحلة الخلق سابقة لمرحلة الجعل، ويوضح ذلك قوله تعالى: (وَاللّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلاَلاً وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْجِبَالِ أَكْنَاناً) (النحل: **81**).

وهذان الفعلان (جعل) و(خلق) كثيراً ما يردان في سياق ذكر مشاهد الكون وآياته وإبراز قدرة الخالق عزوجل، وبتأمل هذه السياقات القرآنية نجد أن هذه المشاهد والآيات إذا وردت مع الفعل (جعل) فإن الجانب المحسوس، أو الشكل الماثل فيها يكون هو محل التأمل والاعتبار، أما عند ورودها مع الفعل (خلق) فليس هذا الجانب المحسوس محل العبرة، بل ما وراء تكوينه من لطيف الحكمة وخفي التدبير [108].

فمع الفعل (جعل) كان لفت الأنظار إلى المشاهد المحسوسة في الكون من شموخ لجبال وسعة الطرق، وارتفاع السماء، أما مع الفعل (خلق) فلم تكن المشاهد المحسوسة هي

107- انظر: المفردات للراغب الأصفهاني، 94، 157.
108- انظر: أسلوب الالتفات في البلاغة القرآنية، 139.

محل التأمل في خلق الليل والنهار من نور أو ظلمة، وإنما كان التركيز على غير المحسوس والمشاهد من شأن القدرة العجيبة التي يتعاقب بها الليل والنهار، وهنا يظهر التناسب المعنوي في التحول المعجمي في الأفعال مع التحول في الضمائر. فسر التحول عن ضمير المتكلم في الفعل (جعلنا) إلى ضمير الغيبة في (خلق) هو "ملاءمة طريق التكلم (وهو قرين الحضور والمشاهدة) لحسية الاستدلال على عظمة الخالق في الآيتين الأوليين، وملاءمة طريق الغيبة، (وهو قرين التواري والخفاء) لعقلانية هذا الاستدلال في الآية الثالثة" [109].

ومن دلالات هذا التحول التفريق بين الوعيد والإخبار المحض نحو قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُواْ فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَاباً شَدِيداً فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ * وَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَاللّهُ لاَ يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ (آل عمران: **56-57**).

إذ نجد البيان القرآني قد تحول في الحديث في هذا السياق عن ضمير المتكلم (فأعذبهم) إلى ضمير الغيبة (فيوفيهم)، ومقتضى السياق في مطابقة الضمائر أن يكون (وأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فأوفيهم أجورهم)، وقد حاول أبو حيان تعليل ذلك فقال [110]: "وفي الآية قبلها قال: (فأعذبهم) أسند الفعل إلى ضمير المتكلم وحده، وذلك ليطابق قوله (فأحكم بينكم) (آية: **55**) وفي هذه الآية قال: (فيوفيهم)، بالياء على قراءة حفص ورويس، وذلك على سبيل الالتفات والخروج من ضمير المتكلم إلى ضمير الغيبة للتنوع في الفصاحة".

وما ذهب إليه أبو حيان في تعليله غير واضح، فهو لم يشرح المقصود بتنوع الفصاحة، ولم يذكر لنا الدلالة التي اقتضاها التحول هنا، والذي يظهر أن السياق لما كان فيه إشارة إلى شدة التخويف والتهديد للكفار ناسب ذلك حديث المولى عن نفسه بضمير المتكلم؛ إمعاناً في التنكيل بهم والتفرغ لهم، فهو لا يريد الإخبار عن عذابهم فحسب، إنما يريد مع الإخبار الوعيد والتهديد، ثم تحول في الحديث عن جزاء المؤمنين إلى الغيبة على سبيل الإخبار فحسب، وليخالف بين الجزاءين في المبنى والمعنى.

109- السابق، 141.
110- البحر المحيط، 475/2.

ويرد هذا التحول أيضاً للدلالة على التعظيم والإجلال، نحو قوله تعالى: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ * وَلَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ (الأنبياء: **17-19**) إذا أسند الفعل (نقذف) إلى ضمير المتكلم ثم تحول عنه إلى ضمير الغيبة (وله) ولم يقل (ولنا)، وذلك أن قذف الحق على الباطل يحتاج إلى قوة لدمغ الباطل وإزهاقه يناسبه الحضور في إسناد الفعل للدلالة على قوة الفعل، ثم كان التحول إلى ضمير الغيبة في ذكر ملكه للسماوات والأرض، فقال: (وله من في السموات والأرض) لما في التغييب من معنى التعظيم والإجلال.

الصورة الثالثة: التحول من الخطاب إلى التكلم

وهذا النوع من التحول نادر وقوعه في القرآن الكريم، وقد سبقت الإشارة إلى سبب ذلك، ومنه قوله تعالى على لسان نبيه شعيب عليه السلام مخاطباً قومه: ﴿وَاسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُواْ إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ﴾ (هود: **90**) وقوله تعالى على لسان نبيه صالح مخاطباً قومه: ﴿قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُواْ اللّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُواْ إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ﴾ (هود: **61**).

ففي الآيتين تحول عن الخطاب في قوله: (استغفروا ربكم ثم توبوا)، وقوله: (فاستغفروه ثم توبوا إليه) إلى التكلم في قوله (إن ربي) ومقتضى المطابقة في الضمائر أن ترد في السياق على نسق واحد من الخطاب فيكون (إن ربكم رحيم ودود) و(إن ربكم قريب مجيب)، لكنه تحول عن ذلك إلى ضمير المتكلم (إن ربي رحيم ودود) و(إن ربي قريب مجيب)، وهذا التحول يشير إلى "عظمة ذي الجلال ورحمته وإجابته من دعاه، واختصاصه سبحانه بتلك الصفات، ويدفع توهم انصرافها إلى آلهتهم فيما لو قيل: (إن ربكم رحيم ودود)، و(إن ربكم قريب مجيب)" [111].

الصورة الرابعة: التحول من الخطاب إلى الغيبة

يكون التحول عن الخطاب إلى الغيبة "لتحقيق مزية ما كان استئناف الخطاب في

111- علم المعاني، دراسة بلاغية ونقدية لمسائل علم المعاني، بسيوني، فيود، 235/1.

حالة الحضور، أي استمراره بضمير المخاطب ليحققها" [112]. نحو قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذَا كُنتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُواْ بِهَا جَاءتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءهُمُ الْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّواْ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُاْ اللّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَـذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ (يونس: **22**).

إذ جاء الكلام في مستهل هذه الآية موجهاً إلى المخاطبين الحاضرين (حتى إذا كنتم في الفلك) ثم تحول عن الخطاب فجأة إلى الغيبة "لهم -فرحوا-جاءهم-وظنوا- أنهم- لهم - دعوا"، ولو اطرد نسق الخطاب لجاء على النحو الآتي:(هو الذي يسيركم في البر والبحر حتى إذا كنتم في الفلك وجرين بكم بريح طيبة وفرحتم بها، جاءتها ريح عاصف، وجاءكم الموج من كل مكان، وظننتم أنكم أحيط بكم دعوتم الله..)، لكنّ الخطاب لم يطرد على هذا النحو بل ما لبث أن تحول عن حالة الخطاب إلى حالة الغيبة، وقد يراد بالتحول إلى الغيبة في هذا السياق التغييب الحسي أو التغييب المعنوي، فأما التغييب الحسي فيظهر من أنهم عندما ركبوا الفلك وجرين بهم أصبحوا غائبين لا مخاطبين.

وأمّا التغييب المعنوي فيظهر من أنهم عند ركوبهم الفلك استحضروا الله وطلبوا معونته فاستحضرهم في الخطاب، فلما اطمأنوا إلى الريح الطيبة وجريان الفلك بهم؛ غيبوا الله من أنفسهم فغيبهم إذ لم يعودوا أهلاً للخطاب، وهو ما يتناغم مع دلالة الآية السابقة لهذه الآية، وهو قوله تعالى: ﴿وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً مِّن بَعْدِ ضَرَّاء مَسَّتْهُمْ إِذَا لَهُم مَّكْرٌ فِي آيَاتِنَا قُلِ اللّهُ أَسْرَعُ مَكْراً إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ﴾ (يونس: **21**).

ومنه قوله تعالى: (إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ * وَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ كُلٌّ إِلَيْنَا رَاجِعُونَ) (الأنبياء: **92-93**).

وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ * فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ زُبُراً كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ (الأنبياء: **52-53**). نجد إقبال الله عليهم بالخطاب عندما كانوا أمة واحدة، فلما تقطع الأمر بينهم وتشتت كيانهم واختلفوا، غابوا عن مشهد الحق، وغاب عنهم المنهج القويم، فانصرف الله -عزوجل- عنهم ولم يعودوا أهلاً للخطاب

112- جماليات الالتفات، عزالدين إسماعيل، ضمن "قراءة جديدة لتراثنا النقدي"، أبحاث ندوة نادي جدة الأدبي، 1988، 897.

فغيبهم [113]. وقد حاول الرازي أن يستخلص لهذا النوع من التحول ومقابله -وهو التحول عن الغيبة إلى الخطاب- دلالة عامة تكاد تحكم في نظره حركة التعبير بهما إذ قرر "أن الانتقال في الكلام من لفظ الغيبة إلى لفظ الحضور يدل على مزيد التقرب والإكرام، وأما ضده وهو الانتقال من لفظ الحضور إلى لفظ الغيبة فإنه يدل على المقت والتبعيد"[114].

وليس الأمر كما ذكر، لأن دلالة التحول عن الخطاب إلى الغيبة -كغيره من صور التحول- تختلف باختلاف سياقه ومقامه، ولا تقتصر فقط على ما حاول الرازي تقريره، بل إن الموضع الواحد قد تتنوع أغراضه وتتعدد مقاصده باختلاف نظر المتلقين إليه [115].

فكما أن التحول عن الخطاب إلى الغيبة قد يدل في سياقات معينة على المقت والتبعيد -كما هو الحال في آيتي يونس والأنبياء وغيرهما، فإنه قد يدل في سياقات أخرى على دلالات جديدة يوحي بها السياق، من ذلك دلالته على الثناء والمدح، كما قوله تعالى: (وَمَا آتَيْتُم مِّن زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللّهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ) (الروم: **39**) "كأنه قال لملائكته وخواص خلقه فأولئك الذين يريدون وجه الله بصدقاتهم هم المضعفون، فهو أمدح لهم من أن يقول: فأنتم المضعفون"[116].

ومنه أيضاً قوله تعالى: ﴿ادْخُلُوا الْجَنَّةَ أَنتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ تُحْبَرُونَ * يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ﴾ (الزخرف: **70-71**).

فقد خاطبهم بقوله: (ادخلوا الجنة) وفي هذا الخطاب تشريف للمخاطبين وتكريم لهم، وفيه إعلام لهم ولغيرهم أن دخولهم الجنة كان بإذنه ومحض فضله ورحمته، ثم تحول عن الخطاب إلى الغيبة مخبراً عن عظيم جزائهم وثوابهم في الجنة، فقال: (يطاف عليهم بصحاف من ذهب وأكواب).

113- انظر: علم المعاني دراسة بلاغية نقدية، بسيوني فيود، 236/1.
114- التفسير الكبير، 72/17.
115- انظر: التوجه البلاغي للقراءات، 331.
116- الكشاف، 224/3.

وفي الإخبار إشعار بتلبسهم بالنعيم وتقلبهم فيه، فكأنه حاصل وهو يخبر عنه، ولو استمر السياق على نسق الخطاب، فقال: (يطاف عليكم بصحاف من ذهب ...) لأفاد ذلك أنهم لحظة الخطاب وُعِدُوا وبُشِّروا بالنعيم ولمّا يتلبسوا به بعد، ثم في التحول إلى الغيبة أيضاً إشعار بالتعظيم فكأن المولى -عزوجل- يذكر حالهم لغيرهم من ملائكته وسائر خلقه مبيناً ما هم فيه من النعيم على سبيل التفخيم والتعظيم، متضمناً ذلك الدعوة إلى التأسي بهم.

وقد يرد ذلك؛ ليدل على العموم فيكون في الغيبة معنى العموم نحو قوله تعالى: ﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُواْ فِي الأَرْضِ فَانْظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ * هَـذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ﴾ (آل عمران: **137-138**).

لقد توجه الخطاب بداية إلى المؤمنين الذين خاضوا مع النبي غزوة أحد؛ تسلية لنفوسهم مما حل بهم من جروح وقروح، ثم نبههم إلى أن ما حصل لهم هو ضمن سنن الله في الكون، وهذه السنن في النصر والهزيمة ليست خاصة بهم وإنما هي لعموم الناس، فمن أخذ بها حقق مقومات النصر، ومن تخلف عنها مني بالهزيمة؛ لذا ناسب أن ينتقل السياق الكريم من خطاب المؤمنين إلى عموم الناس أجمعين، ومن جملتهم المؤمنون، وذلك بأسلوب الغيبة ليندرج فيه كل إنسان ذي عقل يتبين به سنن الله الثابتة في البشر وطرائقه المحكمة في الهزائم والظفر حين قال: (هذا بيان للناس)[117].

ويرد هذا التحول للدلالة "على التشهير والنداء حتى كأن المتكلم بهذا الالتفات يخيل أنه يحكي هذا الأمر الهام ويرويه لكل عاقل ليستنكره ويستقبحه"[118] نحو قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُواْ مِمَّا فِي الأَرْضِ حَلاَلاً طَيِّباً وَلاَ تَتَّبِعُواْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ * إِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاء وَأَن تَقُولُواْ عَلَى اللّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ * وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللّهُ قَالُواْ بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءنَا﴾ (البقرة: **168-170**).

فقد جاء الخطاب موجهاً للناس (يا أيها الناس -كلوا- لا تتبعوا- إنه لكم- يأمركم- تقولوا)، ثم تحول عن الخطاب إلى الغيبة (وإذا قيل لهم). فقوله (لهم) "الضمير للناس

117- النظم القرآني في آيات الجهاد، 152.
118- البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري: 372.

وتحول بالخطاب عنهم على طريقة الالتفات للنداء على ضلالتهم؛ لأنه لا ضال أضل من المقلد، كأنه يقول للعقلاء: انظروا إلى هؤلاء الحمقى ماذا يقولون"[119].

ويكثر هذا النوع من التحول في مخاطبة الله أعداء الإسلام "والتعبير يجري فيه الأصل على أسلوب الخطاب، إذ يخاطب الله أعداء الإسلام خطاباً مباشراً، فيه أحياناً تنبيه لفظاعة جرائمهم وإبطال لترهاتهم، ودعوة إلى التوبة والغفران، وفيه أحياناً أخرى توبيخ وتقريع وتهديد بسوء المصير، وفي كل هذه الحالات يكتسي الخطاب لهجة شديدة صريحة تتناسب والمقام، وفجأة تتحول المواجهة الشديدة إلى تحقير وإذلال وإهانة، وذلك بالإعراض عن مخاطبة الأعداء وبالحديث عنهم بطريق الغيبة وإبعادهم عن مقام الحضور؛ إذ هم ليسوا بأهل للخطاب"[120].

من ذلك قوله تعالى: ﴿هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ * اصْلَوْهَا الْيَوْمَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ * الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ (يس: **63-65**) فبدأ السياق القرآني بالخطاب على سبيل التهديد والوعيد للكفار وهم على شفير النار، ثم تحول إلى الإخبار عنهم بضمير الغيبة؛ إهانة لهم وتشهيراً بفضيحتهم على رؤوس الأشهاد يوم القيامة، وحكاية حالهم لغيرهم بقصد الاعتبار.

الصورة الخامسة: التحول من الغيبة إلى التكلم

جرى التحول عن الغيبة إلى التكلم في سياقات عديدة، منها بيانه تعالى لقدرته على الصنع البديع وتعداده لآيات فضله على عباده، نحو قوله تعالى: ﴿ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاء وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ * فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاء أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاء الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظاً ذَلِكَ تَقْدِيرُ العزيز العليم﴾ (فصلت: **11-12**).

لقد أخبر المولى -عزوجل- عن نفسه في مطلع هذا السياق القرآني بضمير الغيبة، فقال: (ثم استوى)، فقال: (فقضاهن.. وأوحى) ثم تحول عن الغيبة إلى ضمير المتكلم،

119- الكشاف، 328/1.

120- انظر: الالتفات في القرآن، الشاذلي الهيشري، 160.

فقال: (وزينا) وما دام السياق سياق إخبار عن قدرة الله -عزوجل- في الخلق والإبداع، فَلِمَ غاير بين الضمائر في الحديث نفسه، فأخبر عن نفسه بضمير الغيبة في سياق ذكره خلق السماوات والأرض ثم تحول إلى ضمير التكلم عن نفسه عند ذكر تزيين السماء الدنيا بالنجوم؟

يرى ابن الأثير [121]: "أن الفائدة من ذلك أن طائفة من الناس غير المتشرعين يعتقدون أن النجوم ليست في سماء الدنيا، وأنها ليس حفظاً ولا رجوماً، فلما صار الكلام إلى هنا عَدَل به خطاب الغائب إلى خطاب النفس؛ لأنه مهم من مهمات الاعتقاد، وفيه تكذيب للفرقة المكذِّبة المعتقدة بطلانه".

وهذا التعليل لابن الأثير ناتج عن ملحظ اعتقادي، فناسب ذلك -في نظره- التحول إلى ضمير المتكلم؛ لأنه أكثر دلالة على التأكيد والإقناع من ضمير الغيبة. ويرى باحث معاصر [122] تعليلاً آخر لهذا التحول يلمس فيه دلالة معنوية تسري على كثير من سياقات القرآن المشابهة لهذا السياق القرآني، محاولاً بذلك تعليل التحول عن الغيبة إلى التكلم والعكس، فهو يرى -كما سبقت الإشارة في مبحث التحول عن التكلم إلى الغيبة- أن هذه المغايرة بين المتكلم والغيبة والعكس؛ تمثل المفارقة بين المحسوس وغير المحسوس، والمشاهد وغير المشاهد، فيرى أن الأفعال في هذا السياق القرآني كلها مسندة إلى الخالق -عزوجل- غير أن "الأفعال السابقة على فعل الزينة (استوى-قال-أوحى ...) هي أفعال غيبية حدثت في الأزل البعيد، ولا سبيل إلى الإقرار بنسبتها إليه سبحانه إلا صدور الإخبار عنها منه تبارك وتعالى -أما فعل الزينة فإنه بآثاره المشاهدة وعجائبه المرئية في صفحة السماء ماثل للحس، جلي للعيان لا يماري في نسبته إلى الخالق عزوجل إلا مكابر لجوج"[123].

فيكون هذا السياق القرآني قد استدل بالمحسوس المشاهد من مخلوقات الله -عزوجل- على إثبات نسبة ما ليس محسوساً وغير مشاهد إلى الله -عزوجل- وذلك من قبيل قياس الغائب على الحاضر، والخفي المستور على المشاهد المحسوس.

121- المثل السائر، 186/2.

122- انظر: أسلوب الالتفات في البلاغة القرآنية، حسن طبل، 143.

123- أسلوب الالتفات في البلاغة القرآنية، 143.

وقد اطرد هذا التعليل في فهم سياقات قرآنية مشابهة لهذا السياق نحو قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَاباً فَسُقْنَاهُ إِلَى بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَلِكَ النُّشُورُ﴾ (فاطر: **9**). فقد أسند فعل الإرسال إلى ضمير الغيبة، ثم تحول عن ذلك إلى ضمير المتكلم عند إسناد فعلي السوق والإحياء، وذكر الزمخشري أن سبب هذا التحول [124]: "إنه لما كان سوق السحاب إلى البلد الميت وإحياء الأرض بعد موتها من الدلائل على القدرة الباهرة، قيل: فسقنا وأحيينا معدولاً بهما عن لفظ الغيبة إلى ما هو أدخل في الاختصاص وأدل عليه".

ويرى محمد أبو موسى أن سبب ذلك هو إحداث اليقظة "عند هذا المقطع المهم من مقاطع المعنى؛ لأن سوق السحاب إلى الأرض الميتة؛ فتحيا ضرب من قسمة الأرزاق، فناسب أن ينتقل الإسناد إلى ضمير ذي الجلالة ...، ثم يقول: "فالالتفات هنا يشير إلى أن الله سبحانه يسوق السحاب بذاته العلية، ويقسمه رحمة ورزقاً بيديه، ولا يدع لذلك لأحد من خلقه"[125].

وما ذهب إليه الزمخشري وأبو موسى لا يعدو وأن يكون تعليلاً يحتاج إلى تعليل، فكما أن سوق السحب وإحياء الأرض مما اختص به الخالق -عزوجل- في الخلق، فكذلك إرسال الرياح وإثارة السحب، فما الذي خص الفعلين الأخيرين في السياق دون الأول، وكما أن سَوق السحب وإحياء الأرض ضرب من قسمة الأرزاق؛ فكذلك الحال في إثارة السحب، فلماذا هذا الاختصاص بالإسناد إلى ضمير المتكلم؟

لعل تعليل ذلك راجع -والله اعلم- إلى ما سبقت الإشارة إليه من أن في هذه المغايرة بين الضمائر من الغيبة إلى التكلم؛ دلالة على التفريق بين ما هو محسوس وغير محسوس من الأحداث والظواهر، ففعل إرسال الرياح وإثارة السحب غير مشاهد ولا محسوس، وإنما المشاهد والمحسوس هو فعل سوق السحب وإحياء الأرض الموات مزدانة بالخضرة والجمال [126].

124- الكشاف، 302/3.
125- خصائص التراكيب، 199.
126- انظر: أسلوب الالتفات في البلاغة القرآنية، 145.

ومنه قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ بُشْراً بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُوراً * لِنُحْيِيَ بِهِ بَلْدَةً مَّيْتاً وَنُسْقِيَهُ مِمّا خَلَقْنَا أَنْعَاماً وَأَنَاسِيَّ كَثِيراً﴾ (الفرقان: **48-49**)، ففي الآية تحول عن ضمير الغيبة في (أرسل الرياح) إلى ضمير التكلم في (أنزلنا)؛ والسبب -والله اعلم- أن الجانب المحسوس في نعمة إنزال الماء هو محل التأمل والنظر، ويؤكد ذلك وصف الماء بكونه (طهوراً)، ومعلوم أن طهارة الماء هي صفة محسوسة فيه [127].

لكننا نجد آيات أخر ورد فيها فعل إنزال الماء مسنداً إلى ضمير الغيبة على غير ما تقرر في هذا السياق، من ذلك قوله تعالى: ﴿وَالَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَنشَرْنَا بِهِ بَلْدَةً مَّيْتاً كَذَلِكَ تُخْرَجُونَ﴾ (الزخرف: **11**) وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِيَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ﴾ (الأنعام: **99**).وقوله تعالى: ﴿وأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجاً مِّن نَّبَاتٍ شَتَّى﴾ (طه: **53**).وقوله تعالى: ﴿وأَنزَلَ لَكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاء فَأَنبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ﴾ (النمل: **60**).

ولعل ذلك راجع إلى كون الماء النازل من السماء منه ما هو مشاهد محسوس لحظة نزوله فناسبه إسناد الفعل إلى ضمير المتكلم (أنزلنا) للدلالة على المشاهدة والحضور، ومنه ما تسرب في باطن الأرض، وسلكه الخالق فيها ينابيع؛ فهو سبب خفي مستور يمد الأرض بالخضرة والحياة، فناسبه إسناد الفعل فيه إلى ضمير الغيبة (أنزل)، وهذا يلمح إلى تنوع أغراض التحول وتعدد مقاصده باختلاف النظر إليه[128].

ونجد أن السياق -في هذه الآيات- يشير إلى عظمة المولى -عزوجل- وقدرته في الإيجاد والخلق، فناسب ذلك مجيء التعبير بضمير المتكلم الجمع، الدال على التعظيم بعد التحول عن ضمير الغيبة، وسيق هذا التعبير في أكثر هذه الآيات في جمل فعلية ماضية، تدل على القدرة المطلقة نحو: "زينا-سقنا- أحيينا- أنزلنا- أخرجنا- أنشرنا-أنبتنا".

127- انظر: السابق، 146.
128- انظر: أسلوب الالتفات في البلاغة القرآنية، 147.

ويرد هذا التحول في مقام الوعد "بغرض الاهتمام بالمتلقين وزيادة الاعتناء بهم، وذلك بتشريفهم بالتكلم وما يصحبه من الدلالة على وفرة الحب وجزالة الجزاء"[129] نحو قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا وآتِنَا مَا وعَدتَّنَا عَلَى رُسُلِكَ وَلاَ تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّكَ لاَ تُخْلِفُ الْمِيعَادَ * فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لاَ أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى﴾ (آل عمران: **194-195**).

فالتحول في هذه الآية عن ضمير الغيبة (فاستجاب لهم ربهم) إلى ضمير التكلم والخطاب في آن واحد "فيه إظهار لكمال الاعتقاد بشأن الاستجابة وتشريف الداعين بشرف الخطاب، والمراد تأكيدها ببيان سببها، والإشعار بأن مدارها أعمالهم التي قدموها على الدعاء لا مجرد الدعاء [130].

ويرد أيضا في سياق آخر وهو سياق الوعيد؛ ليلقي في نفوس متلقيه -علاوة على معنى التعظيم والتفخيم -إحساساً بالتهديد والترهيب، والتخويف من سوء العاقبة[131] من ذلك قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوَاْ إِن تُطِيعُواْ الَّذِينَ كَفَرُواْ يَرُدُّوكُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ فَتَنقَلِبُواْ خَاسِرِينَ * بَلِ اللّهُ مَوْلاَكُمْ وَهُوَ خَيْرُ النَّاصِرِينَ * سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُواْ الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُواْ بِاللّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَاناً وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَبِئْسَ مَثْوَى الظَّالِمِينَ﴾ (آل عمران: **149-150**). إذ تحول عن الغيبة في قوله (هو) إلى ضمير المتكلم في قوله (سنلقي) وهذا التحول "مشعر بعظم ما يلقى إذ أسند إلى المتكلم بنون العظمة"[132].

ومنه أيضاً قوله تعالى للملائكة المنزلين في بدر مدداً للمؤمنين:﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلآئِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُواْ الَّذِينَ آمَنُواْ سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُواْ الرُّعْبَ فَاضْرِبُواْ فَوْقَ الأَعْنَاقِ وَاضْرِبُواْ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾ (الأنفال: **12**).

كان مقتضى سياق النظم في الآية من غير تحول أن يكون (إذ يوحي ربك إلى الملائكة أنه معهم ...)، ولكنه تحول عنه إلى أسلوب التكلم اعتناء بشأن المعية ومراعاة للمعنى

129- انظر: التوجيه البلاغي للقراءات القرآنية، 329.
130- تفسير أبي السعود، 631/1-632.
131- انظر: التوجيه البلاغي للقراءات، 330.
132- انظر: البحر المحيط، 77/3.

الدقيق للوحي، إذ يقتضي معنى الوحي قرب الموحي من الموحى إليه، وشعور الموحى إليه بذلك القرب، وذلك يزيد الملائكة قوة إلى قوتهم، فقد كلمهم مولاهم وخالقهم، وخاطبهم خطاب المعتني بهم، وصرح بمعية النصر والتأييد لهم، وذلك كله يحقق الغاية من إنزالهم ويتممها [133].

وقال في هذا السياق (سألقي) بضمير المتكلم المفرد، خلافاً للسياق السابق في سورة آل عمران حيث قال: (سنلقي) بنون الجمع للتعظيم، والسر في ذلك -والله اعلم- أنه لو قال في هذا السياق (سنلقي) لتطرق الاحتمال إلى أن للملائكة المخاطبين يداً في ذلك، وأنهم مشاركون لله -عزوجل- في فعل الإلقاء بحكم توجيه خطاب المولى لهم بضرب الأعناق، والأمر ليس كذلك، فهم خلق من خلق الله لا يملكون من أمر ذلك السر الإلهي شيئاً، وإن كانوا طرفاً من أسبابه[134].

الصورة السادسة: التحول من الغيبة إلى الخطاب

"الانتقال من الغيبة إلى الخطاب هو ارتقاء بأسلوب الكلام إلى المباشرة والمصارحة؛ لإفادة التهديد أو العتاب أو التشريف"[135] والسياق هو الذي يحدد الدلالة المقصودة من ذلك.

فمن السياقات القرآنية التي أفاد التحول فيها إلى الخطاب دلالة التهديد والوعيد ما كان خطاباً للكافرين، نحو قوله تعالى: ﴿وقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَداً * لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئاً إِدّاً﴾ (مريم: **88-89**). "وإنما قيل: (لقد جئتم) وهو خطاب للحاضر، بعد قوله: (وقالوا)، وهو خطاب للغائب، لفائدة حسنة، وهي زيادة التسجيل عليهم بالجراءة على الله تعالى والتعرض لسُخْطِه، وتنبيهٌ لهم على عِظَم ما قالوه، كأنه يخاطب قوماً حاضرين بين يديه، منكراً عليهم، وموبِّخاً لهم"[136].

133- النظم القرآني في آيات الجهاد، ناصر الخنين، 163، (بتصرف).
134- التحرير والتنوير، ابن عاشور، 282/9.
135- الالتفات في القرآن، الشاذلي، 162.
136- المثل السائر، 185/2.

ومنه قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ صَلاَتُهُمْ عِندَ الْبَيْتِ إِلاَّ مُكَاء وَتَصْدِيَةً فَذُوقُواْ الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ (الأنفال: **35**). لما أخبر عن شنيع أفعالهم عند البيت المحرم من صفير وتصفيق، ناسب الإخبارَ الحديثُ عنهم بضمير الغيبة على سبيل الإخبار والحكاية، ثم تحول إلى مخاطبتهم بالعذاب بقوله تعالى: (فذوقوا العذاب) لما في ذلك من مواجهة المتلقين بالتوبيخ والتقريع والدلالة على شدة غضب الله عليهم، ومنه أيضاً قوله تعالى: ﴿وَمَن جَاء بِالسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (النمل: **90**).

ونلحظ أن ورود هذا النوع من التحول في سياق التهديد والتقريع قد جاء مدعماً بالأسلوب الإنشائي تارة وبالجمل الخبرية المؤكدة تارة أخرى. فالمثال السابق من سورة مريم جاء التحول فيه إلى الخطاب جملة خبرية مؤكدة بـ (لقد)، وفي الموضعين الآخرين ورد التحول إلى الخطاب في أسلوب إنشائي، تمثل في أحدهما بالأمر في قوله (فذوقوا)، وفي الآخر بالاستفهام (هل تجزون)، وناسب مجيء الإنشاء غالباً في التحول إلى الخطاب؛ لكون الإنشاء طلباً، والطلب يقتضي الحضور.

وكما أفاد التحول إلى الخطاب في هذه المواضع التهديد والتوبيخ فإنه بالمقابل قد يدل في مواضع أخرى على التشريف والتكريم وذلك في سياق خطاب المولى عزوجل للمؤمنين، منه قوله تعالى: ﴿عَالِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ وَحُلُّوا أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَاباً طَهُوراً * إِنَّ هَذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاء وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُوراً﴾ (الإنسان: **21-22**).

إذ بدأ السياق الحديث عنهم بضمير الغيبة واصفاً النعيم الذي هم فيه، والإخبار بالوصف يناسبه الغيبة، والسياق يشي بالتفخيم والتعظيم لما هم فيه من النعيم، ثم تحول عن الغيبة إلى خطابهم قائلاً: "إن هذا كان لكم جزاء وكان سعيكم مشكوراً" لما في الخطاب من التشريف والتكريم؛ ولأن النعيم نوعان: مادي حسي، ومعنوي نفسي، ولا يكتمل النعيم الحسي إلا باتصاله بالنعيم المعنوي، فكان من كمال تلذذهم بالنعيم تشريفهم بالخطاب من المنعم الكريم.

ومنه أيضاً قوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ الأيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُواْ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاء وَاللهُ لاَ يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ (آل عمران: **140**). ففي قوله: (ويتخذ منكم شهداء) تحول إلى الخطاب للدلالة على تخصيص المؤمنين بالشهادة وتشريفهم بها.

ويرد هذا التحول أيضاً للدلالة على استحضار المخاطب وكمال القرب منه، ويكون هذا في خصوصية خطاب الله عزوجل، وهو ما يظهر بوضوح في سورة الفاتحة التي خاض جمهور المفسرين والبلاغيين في تعليل سر التحول فيها عن الغيبة إلى الخطاب في قوله تعالى: ﴿الْحَمْدُ للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ * الرَّحْمـنِ الرَّحِيمِ * مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ * إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاك نَسْتَعِينُ﴾ (الفاتحة: **2-5**).

إذا جرى السياق في معظمه على الغيبة قال: (رب العالمين، الرحمن الرحيم ..)، فذكر الاسم الظاهر وهو من قبل الغيبة[137]، ثم تحول من الغيبة إلى الخطاب في قوله: (إياك نعبد)، وقد تعددت الآراء في الحديث عن سبب هذا التحول، والذي ترتاح له النفس و يتذوقه الحس أن في التغييب نوعاً من التعظيم والإجلال -كما سبق ذكره- فكان الحديث عن المولى -عزوجل- بالغيبة أنه (رب العالمين، الرحمن الرحيم، مالك يوم الدين) وكلها صفات كمال تستوجب التعظيم له ثم التحول إلى الخطاب عند ذكر العبودية فقال: (إياك نعبد) وذلك لاستحضار كمال قرب المولى -عزوجل- من عبده، حتى كأن العبد يرى مولاه ويخاطبه، وتلك أعلى مراتب العبودية وهي الإحسان.

ويتحول عن الغيبة إلى الخطاب لدلالات أخرى غير ما ذكر، يتسع لها السياق القرآني بحسب المقام والحال، فمن تلك الدلالات دلالة التلطف في الخطاب ورفع الحرج كما في قوله تعالى: ﴿لاَّ يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاء مِن دُوْنِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللهِ فِي شَيْءٍ إِلاَّ أَن تَتَّقُواْ مِنْهُمْ تُقَاةً﴾ (آل عمران: **28**). يقول السمين الحلبي (ت **756** هـ)[138]: وفي قوله: "(إلا أن تتقوا) التفات من غيبة إلى خطاب، ولو جرى على سنن الكلام الأول لجاء بالكلام غيبة، وأبدوا للالتفات هنا معنىً حسناً، وذلك أن مولاة الكفار لما كانت مستقبحة لم يواجه عباده بخطاب النهي، بل جاء به في كلام أسند الفعل المنهي عنه لغيب،

137- انظر: مواهب الفتاح ضمن شروح التلخيص، 462/1، والبحر المحيط، 24/1.
138- الدر المصون في علوم الكتاب المكنون، السمين الحلبي، 109/3.

ولما كانت المجاملة في الظاهر والمحاسنة جائزة لعذر وهو اتقاء شرهم حسن الإقبال إليهم وخطابهم برفع الحرج عنهم في ذلك".

ومن تلك الدلالات أيضاً الدلالة على اللوم والعتاب. نحو قوله تعالى: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّى * أَن جَاءهُ الْأَعْمَى * وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّى﴾ (عبس: **1-3**). وقد أبعد الزمخشري النُجْعَةَ في تعليله هذا التحول إذ قال[139]: "وفي الإخبار عما فرط منه ثم الإقبال عليه بالخطاب دليل على زيادة الإنكار، كما يشكو إلى الناس جانياً جنى عليه، ثم يقبل على الجاني إذا حمي في الشكاية مواجهاً له بالتوبيخ وإلزام الحجة".

وما كان ينبغي للزمخشري أن يقول هذا الكلام في حق رسول الله ﷺ إذ شبهه بالجاني الذي يخاطب بجنايته على سبيل زيادة الإنكار عليه والتوبيخ، وإنما السياق سياق معاتبة ولطف، فانظر كيف غيب نبيه صلى الله عليه وسلم عندما وصف عبوسه وتوليه، فقال: (عبس وتولى) فلم يواجهه بقوله: (عبست وتوليت) تحننا بقلب نبيه من أن يخاطب بذلك الوصف، وإنما أخبر عما وقع فحسب، ثم التفت إليه بالخطاب فقصد بذلك المصارحة اللطيفة باللوم الخفيف والعتاب الرقيق، فقال له: (وما يدريك لعله يزكى) ولو استمر السياق على الغيبة فقال: (وما يدريه لعله يزكي) لأوهم ذلك التغييب المستمر اللوم الشديد لنبيه ﷺ، فتحّنن في تغييبه وتلطف في خطابه.

ثانياً: التحول من الضمير إلى الاسم الظاهر

يمثل مجيء الضمير الوارد في السياق أصلاً سياقياً يقتضي مبدأ المشاكلة والمطابقة أن يطرد السياق عليه، لكن المتلقي يفاجأ أحياناً بالتحول المباشر عن الضمير إلى الاسم الظاهر، الذي يحل محل الضمير في عودته على مفسر واحد، فما السر الدلالي في إحلال الاسم محل الضمير مع أن الأصل في مجيء الضمير أن يحل محل الاسم؛ لكون الضمائر تمثل اختصاراً وإيجازاً في التعبير[140] يستغنى بذكرها عن إعادة ذكر الاسم؟

ولمعرفة سبب هذا التحول في سياقاته المختلفة ينبغي أن ندرك أولاً الفرق الدلالي بين الاسم والضمير، وهو أن الاسم والضمير كليهما يحمل دلالة إشارية على الشيء الذي

139- الكشاف 218/4.

140- انظر: الضمائر في اللغة العربية، محمد عبد الله جبر، ص 103.

يشار إليه، فهما يشتركان في هذا المفهوم العام، ويتميز الاسم على الضمير بأن إشاريته أكثر بروزاً من الضمير ووضوحاً منه، وذلك "لأن الاسم الظاهر له طبيعة دلالية خاصة ناتجة عن احتفاظه بانعكاسات دلالية من الشيء الذي يشير إليه"[141].

"فإذا كان الضمير يعطي إشارة ذهنية إلى العائد عليه، هذه الإشارة تحضره في النفس، إلا أن قدراً كبيراً من التأثير يظل الاسم الظاهر محتفظاً به، ولا يستطيع الضمير حمله نيابة عنه؛ لأن الإشارة تتولد حين يقرع اللفظ السمع بجرسه وارتباطاته الدلالية المختلفة جد الاختلاف، التي اكتسبها في قصته الطويلة مع الكلمات والأحداث والمواقف [142]، وترد هذه الدلالات على النحو الآتي:

أ- إنزال الأمر المعنوي منزلة المحسوس في ظهوره وبروزه:

وتبرز هذه الدلالة حين يوضع اسم الإشارة موضع الضمير، لأن اسم الإشارة "بأصل وضعه اللغوي يشير إلى شيء محسوس خارجي، والضمير يعود إلى مرجع معنوي أو محسوس، وقد تعمد الصياغة إلى إبراز دلالة التجسيم والتشخيص في الأشياء المعنوية لا عن طريق المجاز والتخييل، ولكن بواسطة التشكيل اللغوي، عن طريق التبادل بين الضمير واسم الإشارة، واستغلال ثنائية الحضور والغياب في دلالة كل منهما"[143] وهذا وارد في البيان العربي، من ذلك قول عبد الله بن الدمينة [144]:

قِفِي قَبْلَ وَشْكِ البَيْنِ يا ابنَةَ مَالِكِ
تَعَالَلْتِ كَي أشْجَى وَمَا بِكِ عِلَّةٌ
وَلا تَحْرِميني نَظْرَةً مِنْ جَمَالِكِ
تُرِيْدِيْنَ قَتْلِي قَدْ ظَفِرتِ بِذَلِكِ

"فكان مقتضى الظاهر أن يقول: قد ظفرت به؛ لأنه ليس بمحسوس، فعدل إلى (ذلك) إشارة إلى أن قتله قد ظهر ظهور المحسوس"[145].

142- خصائص التراكيب 192-193.
143- تحولات البنية 84.
144- حاشية الدسوقي، شروح التلخيص ٤٥٦/١، وانظر: معاهد التنصيص على شواهد التلخيص، 159/1، ورقم الشاهد (27)، (ولم أجده في ديوان ابن الدمينة بتحقيق أحمد راتب النفاخ).
145- شرح السعد على التلخيص ضمن شروح التلخيص 456/1.

ومن ذلك في التنزيل قوله تعالى: ﴿مَّثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ أُكُلُهَا دَآئِمٌ وِظِلُّهَا تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَواْ وَّعُقْبَى الْكَافِرِينَ النَّارُ﴾ (الرعد: **35**). وقوله تعالى: ﴿وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَارُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ، وَلَكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ اللهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيراً مِّمَّا تَعْمَلُونَ * وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنْ الْخَاسِرِينَ﴾ (فصلت: **22-23**).

فقد كان الأصل الإتيان بالضمير، فيكون في الآية الأولى (هي عقبى ...) وفي الآية الثانية (هو ظنكم الذي ظننتم ...) لكنه "عبر باسم الإشارة: (تلك) و(ذلكم) في موضع الضمير للدلالة على كمال النعيم وتمام ظهوره، فقد بلغ الغاية في الظهور والبيان حتى صار مدركاً بالحواس، وكذا القول في الآية الثانية، فقد بلغ ظنهم الغاية في الظهور والبيان حتى صار كأنه مدرك بالحواس"[146].

ب. الدلالة على العموم:

كما في قوله تعالى: ﴿يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْاْ عَنْهُمْ فَإِن تَرْضَوْاْ عَنْهُمْ فَإِنَّ اللهَ لاَ يَرْضَى عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾ (التوبة: **96**). وردت هذه الآية الكريمة في سياق ذكر المنافقين الذين تخلفوا عن الجهاد مع رسول الله صلى الله عليه وسلم دون عذر. ونجد أن التعبير القرآني قد تحول عن الضمير إلى الاسم الظاهر في قوله (فَإِنَّ اللَّهَ لاَ يَرْضَى عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ) وكان مقتضى السياق أن يكون (فإن الله لا يرضى عنهم) وذلك لأن الآية قد بدأت بالتعبير عن هؤلاء المنافقين بضمير الغيبة في قوله (يحلفون- لترضوا عنهم- فإن ترضوا عنهم...) وهو تحول يدل على أن عدم رضا الله -عزوجل- عن هؤلاء المنافقين ليس لذواتهم وأشخاصهم، فيكون خاصاً بهم، وإنما لكونهم فاسقين، فهو لا يرضى عن الفاسقين عموماً في أي زمان كانوا وفي أي مكان، فالحكم متعلق بالوصف لا بالذات، فبإمكان هذه الذوات أن تتخلع من هذا الوصف المشين فتدخل في رضوان الله- عزوجل- إذا رجعت إليه وتابت. ولو قال: (فإن الله لا يرضى عنهم) لكان قد أوصد باب التوبة أمامهم مطلقاً.

146- علم المعاني دراسة بلاغية، بسيوني فيود 226/1.

ومنه قوله تعالى:﴿وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ وأَقَامُواْ الصَّلاَةَ إِنَّا لاَ نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ﴾ (الأعراف: **170**). "فإنه لم يقل: (إنا لا نضيع أجرهم) وإنما تحول إلى الاسم الظاهر فأفاد فائدتين: إحداهما: أن هذا الصنف هو من المصلحين. والأخرى: أن الأجر لا يختص بهؤلاء الصنف من الناس، وإنما يشمل كل المصلحين فدخل فيه هؤلاء وغيرهم من المصلحين"[147]. فأفاد التحول عن الضمير إلى الاسم الظاهر في هذا السياق العموم، ولو أتى بالضمير لكان الأجر مخصوصاً بهؤلاء دون غيرهم.

جـ. إبراز الوصف الذي يفصح عنه الاسم ولا يظهره الضمير:

منه قوله تعالى: ﴿كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ فَنَادَوْا وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ* وَعَجِبُوا أَن جَاءهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ﴾ (ص: **3-4**). إذ أتى بالاسم الظاهر في قوله: (وقال الكافرون) ولم يقل: (وقالوا)؛ لما في الاسم الظاهر من وسمهم بتلك السمة وإبرازهم بهذا الوصف، فالذي دعاهم إلى تكذيب الرسول هو كفرهم وعنادهم، فقد بلغوا من الكفر مبلغاً كبيراً حتى قالوا هذا القول [148] ولو مضى السياق القرآني على نسقه فكان (وقالوا هذا ساحر كذاب...) لما كان في ذلك من وصفهم بالكفر والإنكار عليهم ما في الاسم الظاهر من الدلالة على ذلك.

ومنه قوله تعالى: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعاً الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ لا إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ يُحْيِـي وَيُمِيتُ فَآمِنُواْ بِاللهِ ورَسُولِهِ النَّبِيِّ الأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ (الأعراف: 158).

تتحدث الآية على لسان الرسول ﷺ وهو يخاطب الناس: "إني رسول الله إليكم" ثم تحول إلى الاسم الظاهر عند دعوتهم إلى الإيمان فقال (فآمنوا بالله ورسوله) ولم يقل: "فآمنوا بالله وبي"؛ وذلك لدلالتين: "إحداهما دفع التهمة عن نفسه بالعصبية لها- فهو لا يدعوا الناس ليؤمنوا به لذاته وإنما لكونه رسولاً مبلغاً عن الله عزوجل- وثانيهما: تنبيههم على استحقاقه الاتباع بما اتصف به من الصفات المذكورة، من النبوة والأمية، التي هي

147- الجملة العربية والمعنى 192.
148- انظر: الكشاف 360/3.

أكبر دليل على صدقه، وأنه لا يستحق الاتباع لذاته، بل لهذه الخصائص"[149].

د. رفع الحرج النفسي عن المخاطب بتغييبه بدلاً من مخاطبته:

من ذلك قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ اللَّاتِي آتَيْتَ أُجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّا أَفَاء اللهُ عَلَيْكَ وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّاتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَالَاتِكَ اللَّاتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ وَامْرَأَةً مُّؤْمِنَةً إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَن يَسْتَنكِحَهَا خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِي أَزْوَاجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ وَكَانَ اللهُ غَفُوراً رَّحِيماً﴾ (الأحزاب: **50**).

بدأ السياق القرآني بالخطاب للنبي ﷺ بقوله: (أحللنا لك) ثم تحول عن ذلك إلى الاسم الظاهر النبي، بقوله: (إن وهبت نفسها للنبي إن أراد النبي) ثم تحول مرة أخرى عن الاسم الظاهر إلى الخطاب فقال: (خالصة لك). ولم يجر السياق على نمط واحد من الضمائر فيكون (إنا أحللنا لك أزواجك... وامرأة مؤمنة إن وهبت نفسها لك إن أردت أن تستنكحها خالصة لك...)؟

والذي يبدو لي أن التحول إلى الاسم الظاهر في هذا السياق فيه دلالة نفسية، وهي رفع الحرج عن النبي ﷺ؛ لأن هذه الخصوصية فيها حرج لنفس الرسول أن يكون هذا خاصاً له دون المسلمين، بل هي أشد من خصوصيته بما زاد عن الأربع زوجات، لأنه زواج بمقابل وهو المهر خلافاً لزواج الهبة الذي هو دون مقابل، فالتحرج منه أشد، لذا ترفق المولى -عزوجل- إذ لم يخاطبه بهذا الحكم مباشرة، فغيبه في الخطاب إذ الاسم الظاهر من قبيل الغيبة فقال: ﴿وَامْرَأَةً مُّؤْمِنَةً إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَن يَسْتَنكِحَهَا خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ فجعل اختصاصه بهذا الأمر بمقتضى مقام النبوة فهو مقام له خصوصيته فلا يكون في صدره أدنى حرج من ذلك[150]. وأكد بذلك بقوله: ﴿لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ﴾.

149- البرهان في علوم القرآن، الزركشي 317/3.
150- انظر: أسلوب الالتفات في البلاغة القرآنية، 137.

هـ- الدلالة على التفخيم والتعظيم:

وذلك في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُواْ أَنفُسَهُمْ جَآؤُوكَ فَاسْتَغْفَرُواْ اللّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُواْ اللّهَ تَوَّاباً رَّحِيماً﴾ (النساء: **64**). وجه المولى- عزوجل- الخطاب لرسوله ﷺ فقال: " جَآؤُوكَ " ثم تحول عن ذلك إلى الاسم الظاهر فقال: " وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ " ولم يقل: "واستغفرتَ لهم"، فتحول عن الضمير إلى الاسم الظاهر "تفخيماً بشأن رسول الله ﷺ وتعظيماً لاستغفاره، وتنبيهاً على شفاعة من اسمه الرسول من الله بمكان"[151].

و- الحث على فعل المأمور:

كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ * فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ﴾ (الكوثر: **1-2**). نجد التحول عن ضمير المتكلم (إنا أعطيناك) إلى الاسم الظاهر (فصل لربك) ولم يقل (فصل لنا) وذلك "لأن في لفظ الرب حثّاً على فعل المأمور به؛ فمن يربيك يستحق العبادة، وفيه إزالة الاحتمال أيضاً، لأن قوله: "إنا أعطيناك الكوثر" ليس صريحاً في إفادة الإعطاء من الله، وأيضاً كلمة (إنا) تحتمل الجمع كما تحتمل الواحد المعظم نفسه، فلما التفت بقوله: (فصل لربك) زال هذان الاحتمالان"[152].

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ والْمُؤْمِنَاتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْراً وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُّبِينٌ﴾ (النور: **12**). فقال: "ظن المؤمنون"، ولم يقل: ظننتم بأنفسكم ..." مطابقة لسابقه في قوله: "سمعتموه" وذلك "ليصرح بلفظ الإيمان دلالة على أن الاشتراك فيه مقتضٍ ألا يصدق مؤمن على أخيه ولا مؤمنة على أختها قول عائب ولا طاعن"[153].

ويرى ابن المنير أيضاً أن "السر في هذا التعبير هو تعطيف المؤمن على أخيه وتوبيخه على أن يذكره بسوء، وتصوير ذلك بصورة من أخذ يقذف نفسه ويرميها بما ليس فيها من الفاحشة، ولا شيء أشنع من ذلك"[154].

151- الكشاف، 538/1.
152- حاشية الدسوقي على شرح السعد، ضمن شروح التلخيص، 468/1.
153- الكشاف، 53/3.
154- حاشية الكشاف، 53/3.

ز- الدلالة على القوة والمهابة:

ويبرز ذلك في التحول عن الضمير إلى الاسم الظاهر الذي هو لفظ الجلالة (الله) تارة و(الرب) تارةً أخرى. "والعدول عن الضمير إلى الاسم الصريح (الله) راجع إلى ما في اسمه تعالى من قوة الدلالة، وفي إظهاره بعد الضمير إلقاء للروعة والمهابة في القلوب، باعتباره المعبود الخليق بالعبادة"[155].

من ذلك قوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ الأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُواْ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاء وَاللهُ لاَ يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ (آل عمران: **140**). فلم يقل: (ولنعلم الذين آمنوا) حتى يتفق مع قوله (نداولها) "فعدل عن ضمير العظمة إلى أسلوب الغيبة بإظهار اسمه الكريم الأعظم، وإسناد العلم إليه وحده في هذا المقام؛ تربية للمهابة في قلوب عباده وإلماعاً إلى أن الذي داول الأيام هو العظيم الواحد لحكمة يريدها"[156].

ومنه قوله تعالى: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللهِ﴾ (الزمر: **53**). فالمتوقع أن يرد السياق: "لا تقنطوا من رحمتي" لكنه تحول إلى الاسم الظاهر "إبرازاً للفظ الجلالة الملائم لذكر الرحمة والمغفرة"[157].

ومما ورد فيه التحول إلى الاسم الظاهر (الرب) قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُّبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ * فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ * أَمْراً مِّنْ عِندِنَا إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ * رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ (الدخان: **3-6**).

إذ تحول من ضمير المتكلم في قوله: "إنا أنزلناه ... إنا كنا ... من عندنا" إلى الاسم الظاهر في قوله: (رحمة من ربك) "والأصل إنا كنا مرسلين رحمة منا، فوضع الظاهر موضع الضمير إيذاناً بأن الربوبية تقتضي الرحمة على المربوبين"[158].

وقد استعمل هذا اللفظ في التحول من ضمير المتكلم إلى الغيبة مضافاً إلى ضمير الخطاب العائد على الرسول ﷺ ("تعظيماً لشأنه إذ هو مربوب لله، أي مملوك له فهو في

155- الالتفات في القرآن، الهيشري، 164.
156- النظم القرآني في آيات الجهاد، 157.
157- علم المعاني، دراسة بلاغية، 234.
158- الكشاف، 501/3.

رعايته"[159]. نحو قوله تعالى: ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَنَحْنُ الْوَارِثُونَ * وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَأْخِرِينَ﴾ (الحجر: **23-25**). "فالانتقال من تعبيره تعالى بضمير المتكلم إلى الاسم الصريح هو ضرب من التحول اعتمده القرآن لقوة الدلالة المستفادة من اسميه تعالى: الله-الرب"[160].

ثالثاً: التحول في أسماء الإشارة والأسماء الموصولة

يرد اسم الإشارة ويقصد به "تمييز المسند إليه أكمل تمييز؛ لأن اسم الإشارة بطبيعة دلالته يفيد تحديد المراد منه تحديداً ظاهراً وتمييزه تمييزاً تاماً، لذا فإن المتكلم قد يقصد إلى هذا التحديد ليحضر المسند إليه في ذهن السامع متميزاً تمام التميز، وذلك عندما يكون معنياً بالحكم الذي يريد إضافته إليه ويرغب في إبرازه وزيادة تأكيده"[161].

ولسنا معنيين في هذا المبحث بتتبع دلالات اسم الإشارة، في السياقات القرآنية بقدر ما نحن معنيون بتفسير ظاهرة التحول في استعمال هذه الأسماء، لمعرفة سر المخالفة بينها في السياق نفسه، كما في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَـذَا بَشَراً إِنْ هَـذَا إِلاَّ مَلَكٌ كَرِيمٌ * قَالَتْ فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ﴾ (يوسف: **31-32**).

فقد أشارت النسوة إلى يوسف باسم الإشارة القريب (هذا) في قولهن: "ما هذا بشراً إن هذا إلا ملك كريم" في حين عدلت امرأة العزيز عن اسم الإشارة القريب إلى الإشارة بالبعد (ذلك) في قولها: (فذلكن الذي لمتنني فيه)، ولم تقل: (فهذا الذي لمتنني فيه). فتطابق إشارتها إشارة النسوة في الصيغة والأداء، وقد تناول البلاغيون دلالة اسم الإشارة بالبعد في قول امرأة العزيز في هذا السياق، ولكنهم تناولوه تناولاً مفرداً دون الإشارة إلى دلالته مقترناً مع اسم الإشارة قبله، فلم يشيروا إلى دلالة التحول في هذا السياق.

ويظهر لنا سبب هذا التحول من معرفة الفرق الدلالي بين الإشارتين، فإشارة النسوة إلى يوسف إشارة قرب، توحي بالقرب والوضوح "ما هذا بشراً إن هذا إلا ملك"، فكانت إشارتهن إلى ما ظهر لهن من حسن يوسف وجماله، وكانت إشارة امرأة العزيز إلى ما هو

159- الالتفات في القرآن، الشاذلي الهيشري، 164.
160- السابق، 165.
161- علم المعاني، دراسة بلاغية ونقدية لمسائل علم المعاني، 107/1.

أبعد من ذلك من حسن خُلُقه ونبل سيرته، فكانت أكثر تعظيماً له منهن وإكباراً.

ونجد الإشارية في هذين الاسمين تحمل دلالة التفضيل، كما نفاضل بين أكبر وكبير، فإذا كان (هذا) اسم إشارة جاء في سياق التعظيم والإكبار (أكبرنه .. قطعن .. قلن .. ما هذا .. إن هذا) وكأن إشارتهن تعني: هو كبير، فإن دلالة اسم الإشارة (ذلكن) أفادت التفضيل على التفضيل، وكأن امرأة العزيز تقول: هو أكبر مما تصورتن، وأكبر مما ظهر لكن من جمال مظهره، وهو جمال مخبره وجوهره.

فجاءت الإشارة الواردة من امرأة العزيز إليه أدق دلالة، وأعمق نظراً، إذ قالت: (فذلكن) على سبيل التعظيم والإكبار ليوسف. ودلت المخالفة بين الإشارتين (هذا-فذلكن) على التكامل في صفة الكمال لدى يوسف من ائتلاف حسن الجوهر وجمال المظهر، وسمو الخِلقة والخُلق.

ويبرز التحول في الأسماء الموصولة في المخالفة بينها في الاستعمال. من ذلك التحول عن الاسم الموصول (الذي) إلى (ما) نحو قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَزُواْ مِنْ عِندِكَ بَيَّتَ طَآئِفَةٌ مِّنْهُمْ غَيْرَ الَّذِي تَقُولُ وَاللهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ﴾ (النساء: **81**). لم يجر السياق على نمط واحد فيكون (فإذا برزوا من عندك بيّت طائفة منهم غير الذي تقول والله يكتب الذي يبيتون). ولكي ندرك سر هذا التحول يجب أن ندرك أولاً الفرق الدلالي في الاستعمال بين (الذي) و(ما)[162]. إذ يفرق ابن القيم (ت **751**هـ) بينهما فيرى أن الفرق بينهما: "أن (ما) اسم مبهم في غاية الإبهام حتى إنها تقع على كل شيء، وتقع على ما ليس بشيء، ألا تراك تقول: إنّ الله يعلّم ما كان وما لم يكن...، وتفارق (الذي) أيضاً في امتناعها عن التثنية والجمع؛ وذلك أيضاً لفرط إبهامها"[163].

فأرجع ابن القيم الفرق الأساس بين (ما) و(الذي) إلى قضية الإبهام، ومع أن (ما) و(الذي) يشتركان في الإبهام وذلك لأن الأسماء الموصولة كلها من المبهمات إلا أنها تتفاوت في الإبهام، فـ (ما) أشد إبهاماً من (الذي) بل هي في غاية الإبهام كما ذكر ابن القيم.

162- ذكر فاضل السامرائي فروقاً عديدة بين (الذي) و(ما)، انظر: معاني النحو، 1/137-138.
163- بدائع الفوائد، 1/131.

ويقول في تحليل (ما) تحليلاً صوتياً مدللاً بذلك على فرط إبهامها "فهي لا تخلو من الإبهام أبداً، ولذلك كان في لفظها ألف آخرة؛ لما في الألف من المد والاتساع في هواء الفم مشاكلة لاتساع معناها في الأجناس؛ فإذا أوقعوها على نوع بعينه وخصوا به من يعقل وقصروها عليه، أبدلوا الألف نوناً ساكنة فذهب امتداد الصوت، فصار قصر اللفظ موازناً لقصر المعنى"[164].

ويفهم من تحليله هذا أن بناء (ما) يوافق استعمالها المتسع، فإن مدة الألف المتسعة في آخرها، تشاكل الاتساع في معناها، وأمّا (من) فهي مقيدة بالسكون، لذا كان استعمالها مقيّداً بالعقلاء [165]. وأن (من) أصلها (ما) وهو الذي أيدته الدراسات الحديثة فيرى برجشتراسر [166]: "أن (من) و(ما) أصلهما واحد يعني: "ما" وألحقت بها النون، وهي من العناصر الإشارية أيضاً، وإن لم توجد في اللغة العربية بين أسماء الإشارة، فتدل (ما) على الأشخاص إذا وقعت مع هذا الحرف اللاحق، وعلى الأشياء إذا وقعت بدونه".

وتتفاوت الأسماء الموصولة (الذي) و(من) و(ما) في التعريف، "فأعرف هذه الأسماء ما كان مختصاً ثم ما كان مشتركاً، فـ (الذي) أخص من (ما) و(من) فإنه مختص بالمفرد والمذكر، وكُلّ من (ما) و(من) اسم موصول مشترك في المفرد والمثنى والجمع والتذكير والتأنيث. ومعنى (أخص) أي أنه أكثر تحديداً ووضوحاً من ذينك، فهو على هذا أعرف منهما، لتحديد معناه ووضوحه"[167].

ثم يليه في الاختصاص (من) فهو أخص من (ما) كما أشار ابن القيم، وبناءً على ذلك يمكننا أن ندرك سبب التحول في الآية السابقة التي نحن بصددها وهي قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَزُواْ مِنْ عِندِكَ بَيَّتَ طَآئِفَةٌ مِّنْهُمْ غَيْرَ الَّذِي تَقُولُ وَاللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ﴾ (النساء: **81**). إذ قال ابتداءً "غير الذي" ثم تحول عن الاسم الموصول (الذي) إلى (ما) فقال: (والله يكتب ما يبيتون). وذلك "لأن أن أحد الموضعين أعرف من الآخر فالذي يقوله أعرف مما يبيتون؛ لأن الأول معلوم عند المخاطب متفق عليه، بخلاف ما يبيتون فإنه

164- بدائع الفوائد، 131/1.
165- انظر: معاني النحو، 131/1.
166- التطور النحوي، 86.
167- معاني النحو، 138/1.

مجهول عنده، إذ هو لا يدري ماذا يبيتون، فجاء للأخص المعلوم بـ (الذي) والآخر بـ (ما)"[168].

ويرد التحول على العكس مما سبق فيتحول عن (الذي) إلى (ما) كما في قوله تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحاً والَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى﴾ (الشورى: 13).

فأتى بـ (ما) في قوله: "ما وصى به نوحاً"، ثم تحول إلى (الذي)، فقال: "والذي أوحينا إليك"، ولم يقل: (وما أوحينا إليك) مع أن كليهما اسم موصول، ثم عاد فقال: "وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى".

والسبب أن (الذي) أخص وأعرف من (ما)؛ لأن (ما) مشترك يشترك فيه المذكر والمؤنث، والمفرد والجمع، والعاقل وغير العاقل، فجاء بـ (الذي) في الأعرف؛ لأنا نعرف شريعتنا، وعرفنا حدودها ودقائقها، فجاء بالأعرف، بينما لا نعرف على وجه التحديد والتفصيل ما وصى به إبراهيم وموسى وعيسى لا سيما أن كتبهم قد حُرِّفت [169].

168- معاني النحو، 139/1.
169- من حديث للدكتور فاضل السامرائي في حلقة تلفزيونية من الشارقة.

المبحث الثالث

التحول من الاسم إلى الفعل والعكس

نجد في التعبير القرآني كثرة مجيء التحول من الاسم إلى الفعل والعكس، ويقتضي حسن المشاكلة والمطابقة في السياق اللغوي أن يعطف الفعل على الفعل والاسم على الاسم، والتحول بالمخالفة بين الاسم والفعل لـه بعد دلالي يدرك من معرفة الفرق الدلالي بين الاسم والفعل، وقد تقرر عند علماء اللغة والبلاغة أن "الفعل يدل على التجدد والحدوث، والاسم على الاستقرار والثبوت، ولا يحسن وضع أحدهما موضع الآخر"[170].

وسبب ذلك أن الفعل مقيد بالزمن، فالفعل الماضي مقيد بالزمن الماضي، والمضارع مقيد بزمن الحال أو الاستقبال في الغالب، في حين أن الاسم غير مقيد بزمن من الأزمنة، فهو أشمل وأعم وأثبت [171].

وهذا ما قرره شيخ البلاغة العربية عبد القاهر الجرجاني (ت **474**هـ) بقوله[172]: "فموضوع الاسم على أن يثبت به المعنى للشيء من غير أن يقتضي تجدده شيئاً بعد شيء، وأما الفعل فموضوعه على أن يقتضي تجدد المعنى المثبت به شيئاً بعد شيء، فإذا قلت: "زيد منطلق"، فقد أثبتّ الانطلاق فعلاً له، من غير أن تجعله يتجدد ويحدث منه شيئاً فشيئاً، بل يكون المعنى فيه كالمعنى في قولك: "زيد طويل"، و"عمرو قصير"، فكما لا تقصد ههنا إلى أن تجعل الطول أو القصر يتجدد ويحدث، بل توجبهما وتثبتهما فقط، وتقضي بوجودهما على الإطلاق، كذلك لا تعترض في قولك: "زيد منطلق" لأكثر من إثباته لزيد. وأما الفعل، فإنه يقصد فيه إلى ذلك، فإذا قلت: "زيد ها هو ذا ينطلق"، فقد زعمت أن الانطلاق يقع منه جزءاً فجزءاً، وجعلته يزاوله ويُزَجّيه، وإن شئت أن تُحِسّ الفرق بينهما من حيث يلطف، فتأمل هذا البيت:

لا يَأْلَفُ الدّرهَمُ المضروبُ خِرْقَتَنَا لكن يَمُرُّ عَليهَا وهو مُنْطَلِقُ

170- البرهان في علوم القرآن، الزركشي، 66/4.
171- انظر: معاني الأبنية في العربية، فاضل السامرائي، 9.
172- دلائل الإعجاز، الجرجاني، تحقيق شاكر، 1

هذا هو الحسن اللائق بالمعنى، ولو قلته بالفعل: لكن يمر عليها وهو ينطلق، لم يحسن".

وقد استشهد الجرجاني على هذه القاعدة بقول الشاعر النضر بن جُؤيّة [173]:

قَالَتْ طَريفَةُ ما تَبْقى دَرَاهِمُنا

إنّا إذَا اجْتَمَعَتْ يَومَاً دَرَاهِمُنا

لا يَأْلفُ الدّرْهَمُ المضْرُوبُ خِرْقَتَنا[174]

وَمَا بنا سَرَفٌ فِيهَا ولا خَرَقُ

ظَلّتْ إلى طُرقِ الخَيْرَاتِ تَسْتَبِقُ

لكن يَمُرُّ عَليَها وَهْوَ مُنْطلِقُ

لقد مدح الشاعر قومه بالكرم والعطاء وأن صرتهم لا تألف الدرهم، فلا يستقر فيها، وإنما يمر عليها منطلقاً في وجوه الخير والإنفاق، وهذا المقام يلائمه مجيء الاسم "منطلق"؛ لأنه يفيد أن "انطلاق الدراهم من الصُرّة أمر ثابت دائم لا يتجدّد، وأن الدراهم ليس لها استقرار ما في الصُرّة"[175]. "ولو أتى به فعلاً فقال: "وهو ينطلق" لكان المعنى أن انطلاقه يتجدد، وهذا يعني أنهم يمسكونه زمناً ما"[176]. فكان مجيء الاسم أبلغ في الدلالة على المدح والثناء.

وهذا الفرق الدلالي بين الاسم والفعل، يهدينا إلى معرفة سر التحول عن الاسم إلى الفعل أو العكس في السياق القرآني، فهو تحول يقتضيه سياق الحال ويكشف عن دلالات بلاغية مقصودة، لا كما ذهب إليه بعض النحاة من تأويل الفعل بمعنى الاسم أو العكس؛ حتى يصح عطف أحدهما على الآخر.

يقول الرضي (ت **686**هـ) في شرح الكافية: "ومنها أنه يُعطَف الفعل على الاسم والعكس، إذا كان في الاسم معنى الفعل، قال الله تعالى: (فَالِقُ الإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَناً)

173- انظر: معاهد التنصيص، ٢٠٧/١، وحاشية الدسوقي ضمن شروح التلخيص، ٣٠/٢.

174- هكذا "خرقتنا" في دلائل الإعجاز، تحقيق شاكر، ١٧٤، والمذكور في معاهد التنصيص، ٢٠٧/١، وفي شروح التلخيص، "صُرتنا"، انظر: شروح التلخيص، ٣٠/٢.

175- حاشية الدسوقي، ضمن شروح التلخيص، ٣٠/٢.

176- علم المعاني، دراسة بلاغية ونقدية، ١٦٦/١.

(الأنعام: **96**). على قراءة عاصم، أي: فلق الإصباح، وكذا قوله تعالى: (صَافّاتٍ وَيَقْبِضْنَ) (الملك: **19**). أي: يصففن ويقبضن.

قال الشاعر [177]:

"بَاتَ يُعشّيها بِعَضْب بَاتِر يَقْصِدُ في أسْؤُقِهَا وَجَائِر

أي: ويجور"[178].

وتأويل الاسم بمعنى الفعل ليصح العطف بينهما تكلف واضح دعا إليه الاهتمام بالشكل على حساب المضمون والدلالة، ولو كان الأمر كما ذكر لما كان للمخالفة بين الاسم والفعل في هذا السياق معنى يذكر.

وفحوى هذا القول إنه يسوي في الدلالة بين ما ورد في القرآن الكريم من قوله تعالى: "صافات ويقبضن" وما هو مفترض وقوعه وهو "يصففن ويقبضن" والحكيم لا يغاير في كلامه وأسلوبه إلا لدلالة مقصودة، فهو قول لا يقف على أسرار البيان ودقائق المعاني في التعبير لمعرفة الفروق بينها.

وقد أشرنا إلى أن الفرق الدلالي بين الاسم والفعل يرجع إلى ما ذكره البلاغيون من دلالة الاسم على الثبوت، والفعل على التجدد والحدوث، غير أن هذه الدلالة تظل دلالة عامة تتوالد منها دلالات فرعية خاصة، يحددها السياق الخاص الواردة فيه، فيكشف التحول لنا في الحالة هذه عن دلالات تبرز مظهراً من مظاهر الإعجاز القرآني، ويرد بكثرة في السياقات القرآنية في صور عدة على النحو الآتي:

أولاً: التحول من اسم الفاعل إلى الفعل والعكس

من ذلك قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ وَيَقْبِضْنَ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا الرَّحْمَنُ﴾ (الملك: **19**). فقد ورد في هذه الآية اسم الفاعل "صافات"، وكان مقتضى

177- الشاهد: رجز مجهول القائل وهو الشاهد السادس والخمسون بعد الثلاثمائة في الخزانة، واستشهد به على أن: "جائر" معطوف على "يقصد" لكونه بمعنى الفعل، أي: يقصد ويجور، انظر: خزانة الأدب، 139/5.
178- شرح الكافية، الرضي، 86/3-87، ت: عبدالعال مكرم، عالم الكتب، القاهرة، 2001.

السياق بموجب المشاكلة في التعبير أن يماثل بينهما فيكون "صافات وقابضات"، لكن السياق خرج عن المتوقع لدى المتلقي؛ فتحول من الاسم إلى الفعل؛ ليولد دلالة جديدة لا يفي بها الاسم لو استمر السياق على نسقه العام دون مخالفة التعبير، فقال: "صافات ويقبضن".

وهنا يوظف التعبير القرآني الفرق الدلالي بين الاسم والفعل أحسن توظيف؛ ليوافق به المقال مقتضى الحال، فَيُفَصِّل التركيب المقالي في دلالته الأسلوبية وفق واقع الطير الملموس والمشاهد في الحياة، وذلك أن: "الأصل في الطيران هو صف الأجنحة؛ لأن الطيران في الهواء كالسباحة في الماء، والأصل في السباحة مد الأطراف وبسطها، وأما القبض فطارئ على البسط للاستظهار به على التحرك، فجيء بما هو طارئ غير أصل بلفظ الفعل، على معنى أنها صافات، ويكون منهن القبض تارة كما يكون من السابح"[179].

فما هو أصل ثابت -وهو صف أجنحتها في الهواء- عبر عنه بالاسم للدلالة على الثبوت والاستمرار [180]، وما هو حادث طارئ غير مستمر -وهو قبضها أجنحتها- عبّر عنه بالفعل لدلالته على الحدوث والتجدد. وهذه الدقة المحكمة في التعبير القرآني تجلي لنا قول المولى عزوجل في وصف كتابه الكريم: ﴿كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ (هود: **1**).

ومنه قوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيِّتُونَ * ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ﴾ (المؤمنون: **15-16**).

إذ جاء التعبير عن الموت بالاسم مؤكداً بلام التوكيد (لميتون)، في حين عبر عن البعث يوم القيامة بالفعل المضارع (تبعثون)، وكان مقتضى الظاهر أن يجيء العكس؛ لأن وقوع الموت أمر لا يحتاج إلى تأكيد، فهذا أمر لا يختلف فيه اثنان، وإنما وقع الشك لدى الكفار والمشركين في قضية البعث لا الموت، وسبب ذلك أنه "بولغ في تأكيد الموت؛ تنبيهاً للإنسان أن يكون الموت نصب عينيه، ولا يغفل عن ترقبه، فإن مآله إليه؛ فكأنه أكد جملته ثلاث

179- الكشاف، 138/4.

180- وحيثما ورد في القرآن ذكر الطيور ووصف بسط أجنحتها أتي به اسماً، من ذلك قوله: (أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَالطَّيْرُ صَافَّاتٍ) (النور: 41).

مرات[181] لهذا المعنى؛ لأن الإنسان في الدنيا يسعى فيها غاية السعي حتى كأنه مخلّد، ولم تؤكد جملة البعث إلا بـ (إنّ)؛ لأنه أبرز في صورة المقطوع به الذي لا يمكن فيه نزاع ولا يقبل إنكاراً ..." [182]. وفيه دلالة أخرى، وهي أن "الموت هو سكون أو جمود تلائمه صيغة الثبوت، والبعث حركة وحياة تلائمها صيغة الحدوث والتجدد"[183]. وفي مجيء المضارع في ذكر البعث "تبعثون" استحضار لمشهد البعث وكأنه ماثل للعيان، فهو أعمق أثراً في النفوس وآكد في الوقوع.

وكما ورد التحول في السياقين السابقين عن اسم الفاعل إلى الفعل المضارع فإنه يرد أيضاً إلى الفعل الماضي؛ للدلالة على المفارقة بين ما هو أصل بخلقته وما هو طارئ في الخلق والإيجاد، من ذلك قوله تعالى: (فَالِقُ الإِصْبَاحِ وجَعَل اللّيْلَ سَكَناً) (الأنعام: **96**).

إذ عبر عن فلق الإصباح باسم الفاعل فقال: (فالقُ الإصباح) في حين تحول من الاسم إلى الفعل في التعبير عن الليل فقال: "وَجَعَلَ الليلَ سَكَنَاً". ومجيء الاسم هنا يوحي بالقدرة العجيبة على فلق الإصباح، وإخراجه من بين ظلمات الكون الحالكة، في حين دل التحول إلى الفعل في (وجعل الليل سكنا) على أن الليل أصل في الخلقة والإيجاد قبل فلق الإصباح، وذلك لدلالة الفعل الماضي على حصول ذلك وتحققه في الزمن الماضي البعيد، والتقدير: وجعل الليل سكناً من قبل فلق الإصباح، "فالإصباح طارئ، وأما الليل فهو سكن دائم تنغمر فيه الكرة الأرضية ويحيط بها من جميع جوانبها كأنه لباس للأرض"[184]، قال تعالى: (وَجَعَلْنَا اللّيْلَ لِبَاساً) (النبأ: **10**).

وهذا ما كشف عنه العلم الحديث الآن، فقد "أفاد جميع رواد الفضاء منذ عام **1961**، أنهم عندما اخترقوا الغلاف الجوي للأرض وجدوا أن القشرة الجوية الكروية المنيرة من هذا الخلاف والتي تواجه الشمس أثناء النهار لا يتعدى سمكها **200** كيلو متراً فوق سطح الأرض، وبعد هذا الارتفاع تظلم السماء تماماً رغم وجود الشمس التي لا يتشتت ضوءها

181- أي: بـ (إنّ) واللام، وإيراد الخبر بصيغة الاسم (ميتون) دون صيغة الفعل (تموتون).
182- البرهان في علوم القرآن، 88/3.
183- أسلوب الالتفات في البلاغة القرآنية، 180.
184- الكون والإعجاز العلمي للقرآن، منصور محمد حسب النبي، 203.

في الفضاء الكوني؛ لعدم وجود الذرات والجسيمات الكافية اللازمة لحدوث التشتت، كما تظهر النجوم مع قرص الشمس في السماء الحالكة الظلام، "وتبدو الأرض قرصاً منيراً يسبح وسط ظلام حالك"[185]. وهو ما أشار إليه القرآن أيضاً في موضع آخر بقوله تعالى: ﴿وَآيَةٌ لَّهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ﴾ (يس: **37**)؛ أي: أن النهار ينسلخ من الليل الدائم في الفضاء كما ينسلخ جلد الشاة من جسدها، ولهذا فالليل هو الأصل بينما النهار طارئ"[186]. فيكون هذا التحول قد كشف عن جانب من جوانب الإعجاز العلمي [187] في القرآن الكريم.

وقد يرد التحول على العكس مما سبق، إذ يتحول التعبير القرآني من الفعل المضارع إلى اسم الفاعل ليؤدي بذلك دلالات متعددة، منها الدلالة على المفارقة الحسية بين ما هو متجدد في خِلقته وما هو ثابت في طبعه، من ذلك قوله تعالى: ﴿يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ ذَلِكُمُ اللهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ﴾ (الأنعام: **95**). "فاستعمل الفعل مع الحي فقال: (يخرجُ)، واستعمل الاسم مع الميت، فقال: (مخرج)؛ وذلك لأن أبرز صفات الحي الحركة والتجدد، فجاء معه بالصيغة الفعلية الدالة على الحركة والتجدد؛ ولأن الميت في حالة همود وسكون وثبات جاء معه بالصيغة الاسمية الدالة على الثبات، فقال: "ومخرج الميت من الحي"[188].

وأما مجيء التعبير في سورة آل عمران بصيغة الفعل في قوله تعالى: ﴿وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ﴾ (آل عمران: **27**)، فسياق آل عمران يتحدث عن التغير والتبدل والتجدد: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاء وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاء وَتُعِزُّ مَن تَشَاء وَتُذِلُّ مَن تَشَاء بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىَ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ * تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَتَرْزُقُ مَن تَشَاء بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ (آل عمران: **26-27**).

185- الكون والإعجاز العلمي للقرآن، 203.
186- المصدر السابق، 206.
187- انظر هذه الحقيقة العلمية في الكون والإعجاز العلمي للقرآن، 202-208، وأسرار الكون في القرآن، داود سلمان السعدي، 137، والمنظار الهندسي للقرآن، خالد العبيدي، 793
188- التعبير القرآني، 23.

إذ نلحظ أن السياق كله حركة وتغيير وتبديل فجاء بالصيغة الفعلية الدالة على التجدد والتغير والحركة، أما السياق في سورة الأنعام فليس في التبديل والتغيير[189]، وإنما هو في الدلالة على قدرة الله وتفضله على الخلق قال تعالى: ﴿إِنَّ اللهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ ذَلِكُمُ اللهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ * فَالِقُ الإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَناً وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَاناً ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ (الأنعام: **95-96**).

ويرد هذا التحول أيضاً للدلالة على المفارقة بين ما هو موقوت ودائم كما في قوله تعالى: (وَمَا كَانَ اللّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ) (الأنفال: **33**)،"فقد جاء في صدر الآية بالفعل: "ليعذبهم" وجاء بعده الاسم "معذبهم"، وذلك أنه جعل الاستغفار مانعاً ثابتاً من العذاب، بخلاف بقاء الرسول ﷺ بينهم، فإنه –أي: العذاب– موقوت ببقائه بينهم، فذكر الحالة الثابتة بالصيغة الاسمية والحالة الموقوتة بالصيغة الفعلية"[190].

ومن اللافت للنظر أنه عبر عن استغفارهم بالفعل "يستغفرون" ولم يقل: (وهم مستغفرون) ليشير بذلك إلى سعة رحمته –عزوجل– لأنه منع عنهم العذاب منعاً باتاً يقيناً بأي استغفار يحدث منهم، ولو لم يكن وصفاً ثابتاً فيهم، في حين أنه لا يهلكهم إلا بتحقق حصول الظلم وثبوته وصفاً مستقراً فيهم، فقال عزوجل: ﴿وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَى إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ﴾ (القصص:**59**). فقال: (ظالمون) ولم يقل: (يظلمون) للدلالة التي ذكرناها [191].

وقد يدل هذا النوع من التحول أيضاً على حقيقة علمية تبرز جانباً من جوانب الإعجاز العلمي في القرآن، كما في قوله تعالى: (اللّهُ الّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنّهَارَ مُبْصِراً) (القصص: **61**). إذ استعمل مع الليل الفعل (لتسكنوا) ثم تحول عنه إلى الاسم مع النهار، فقال: (مبصراً)، ولم يجر السياق على نسق واحد فيكون (والنهار لتبصروا فيه).

189- التعبير القرآني، 23.
190- السابق، 26.
191- انظر: السابق، 26.

وعلل الزمخشري ذلك فقال [192]: "لأنه لو قيل: "لتبصروا فيه" فاتت الفصاحة التي في الإسناد المجازي، ولو قيل: ساكناً، والليل يجوز أن يوصف بالسكون على الحقيقة ألا ترى إلى قولهم: "ليل ساج وساكن لا ريح فيه، لم تتميز الحقيقة من المجاز".

ومراد الزمخشري هنا أن العلة من التحول إلى الاسم (مبصراً) هو إضفاء نوع من الجمال الفني بمجيء المجاز العقلي، ولو قال: "لتبصروا فيه"، فإنّ هذه الناحية الجمالية تذهب لتصبح دالة على الحقيقة، وأن مجيء الفعل مع وصف الليل (لتسكنوا فيه) هو على الحقيقة، فيكون قد جمع بين الحقيقة والمجاز في تعبير واحد، ولو جعلهما بصورة تعبيرية واحدة لفاتت هذه المزية الفنية[193].

وليس الأمر كذلك، فالمزية الفنية ليست مقصورة على المجاز فحسب، بل قد تكون الحقيقة أحياناً أبلغ من المجاز، والسياق هو الذي يحدد ذلك، والذي يظهر أن المولى -عزوجل- قال: "لتسكنوا فيه" ولم يقل مثلاً: "ساكناً"؛ لأنه يريد أن يمتن على عباده بنعمته وفضله بأن جعلهم هم الساكنون فيه، لا أن الليل نفسه ساكناً، لذلك جاء بقوله (لكم) في قوله: "الله الذي جعل لكم الليل لتسكنوا فيه". ثم قال: "والنهار مبصراً" فأسند الإبصار للنهار؛ لملمحين دلالين هما:

الأول: ملمح معنوي، يراد به بيان أن النهار نفسه مبصر، يبصر أعمالنا، ويكون شاهداً علينا بالخير والشر، وخص النهار بالإشهاد على الأعمال؛ لكونه محلاً لحركة المكلفين، لذلك يقول المولى عزوجل: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ﴾ (الأنعام: **60**).

والثاني: ملمح حسي مادي يكشف عن جانب من جوانب الإعجاز العلمي في القرآن الكريم، إذ كان المعتقد قديماً لدى علماء الإبصار "أن الإبصار يحدث نتيجة خروج شعاع من العين يسقط على الجسم فتتم رؤيته"[194]. وقد ثبت علمياً خطأ هذا الاعتقاد بعد تقدم الدراسات التشريحية للعين، وأثبتت هذه الدراسات أن حدوث الإبصار يكون "نتيجة

192- الكشاف، 434/3.
193- انظر: التعبير القرآني، 27.
194- موسوعة الإشارات العلمية في القرآن والسنة، عبد الباسط الجمل، 86.

خروج شعاع من العين يسقط على الجسم، ثم ينعكس ليسقط على العين مرة أخرى، وعملية الانعكاس تتم للون واحد "طول موجي واحد" من ألوان الطيف السبعة المكونة لشعاع الشمس المرئي، ومن ثم فوجود شعاع الشمس أساسي لحدوث عملية الإبصار، فلا يمكن حدوث الإبصار في الظلام لعدم وجود الأطوال الموجية للأشعة المرئية، التي يمكن للأجسام امتصاص بعضها وعكس الآخر؛ لترى به عند سقوطه على شبكية العين"[195]. لذا" فالتعبير بكون النهار مبصراً في قوله تعالى: "والنهار مبصراً" إنما المراد به الأشعة المرئية المضيئة للنهار، والتعبير باسم الفاعل "مبصر" يفيد بأن النهار هو مصدر تلك الأشعة"[196].

ثانياً: التحول من الفعل إلى اسم المفعول

منه قوله تعالى عن نبيه داود عليه السلام: ﴿إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ * وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَهُ أَوَّابٌ﴾ (ص: **18-19**). لقد عبر المولى عزوجل عن حال الجبال في التسبيح بالفعل المضارع "يسبحن"، وتحول من ذلك إلى الاسم في ذكر الطير، فقال: "والطير محشورة"، ولم يجر السياق على نسق واحد فيكون (إنا سخرنا الجبال معه يسبحن ... والطير يحشرن)، فيسوي بينهما في الفعلية.

يرى الزمخشري أنه اختير الفعل (يسبحن) على (مسبحات) للدلالة على "حدوث التسبيح من الجبال شيئاً بعد شيء وحالاً بعد حال، وكأن السامع محاضر تلك الحال يسمعها تسبح"[197]، ثم تحول في وصف الطير إلى الاسم، فقال: "والطير محشورة" وذلك أنه لما "لم يكن في الحشر ما كان في التسبيح من إرادة الدلالة على الحدوث شيئاً بعد شيء جيء به اسماً لا فعلاً، ولو قيل: "وسخرنا الطير يحشرن، على أن الطير يوجد من حاشرها شيئاً بعد شيء، والحاشر هو الله -عزوجل- لكان خلفاً؛ لأن حشرها جملة واحدة أدل على القدرة"[198]

195- المصدر السابق، 86.
196- المصدر السابق، 87.
197- الكشاف، 364/3.
198- المصدر السابق، 365/3.

فيكون هذا التحول دالاً على المغايرة بين فعل العبد وفعل الرب سبحانه "فالتسبيح يقع من المخلوقات شيئاً فشيئاً، أما الحشر فيقع من الله جملة واحدة بأمر واحد، إذ يقول للشيء كن فيكون، وكذلك يدل على اجتماع الطير لداود عليه السلام في وقت واحد ساعة تسبيحه، لا أنها تحضر في أوان التسبيح شيئاً فشيئاً، بل تحضر معه جملة واحدة من بداية التسبيح إلى منتهاه [199]، ولو قال: "والطير يحشرن"، لدل ذلك على حدوث الحشر شيئاً بعد شيء واستغراقه فترة من الزمن.

ويضفي هذا التحول أيضاً دلالة أخرى إذ يبرز خصوصية النعمة التي أنعم الله بها على داود عليه السلام، إذ جعل الجبال تسبح معه والطير محشورة له، ومن شأن الجبال التسبيح الدائم لكونها تندرج ضمن قوله تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدَهِ، وَلَـكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ (الإسراء: **44**).

لكن المولى -عزوجل- أراد أن يبرز نعمته على داود بتسبيح الجبال معه على وجه الخصوص، فأتى بالفعل المضارع (يسبحن) مع الجبال للدلالة على "أن التسبيح المقصود من الجبال ليس ذلك التسبيح الدائم، بل هو تسبيح خاص بنبي الله داود يتجدد بتجدد تسبيحه"[200].

ويؤيد ذلك دلالة المعية في الظرف (معه) المقدم على الفعل في قوله (إنا سخرنا الجبال معه يسبحن)، كذلك "من شأن الطير الحركة وسرعة التنقل ومن ثم فإن التعبير بصيغة الاسم (محشورة) يفيد أن الطير حين تحشر إلى داود لتتجاوب مع تسبيحه، تفارق طباعها وتثبت في مكانها خاشعة لا تكاد تريم"[201].

ثالثاً: التحول من المصدر إلى الفعل

من ذلك قوله تعالى: ﴿وَلاَ تَكُونُواْ كَالَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَارِهِم بَطَراً ورِئَاء النَّاسِ ويَصُدُّون عَن سَبِيلِ اللهِ وَاللهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ (الأنفال: **47**).

199- الإعجاز الصرفي، 175.
200- أسلوب الالتفات في البلاغة القرآنية، 108.
201- المصدر السابق، 108.

فقد جاء بالحال مصدراً في قوله "بطراً ورئاء الناس" ثم تحول من المصدر إلى الفعل فقال: "ويصدون عن سبيل الله"، ولم يقل: "وصادين عن سبيل الله"، فيأتي بالأحوال كلها على نسق واحد من الأسماء، وإنما خالف بينها لدلالة مقصودة، وذلك أن هذه الآية نزلت في جيش قريش الذين خرجوا بزعامة أبي جهل لمقاتلة الرسول ﷺ في بدر، فأشار هذا السياق إلى "أن أبا جهل ورهطه كانوا مجبولين على البطر والرياء، فذكر بلفظ الاسم تنبيهاً على أصالتهما فيهما، وأما الصد فإنما حصل في زمان ظهور الرسول ﷺ بالنبوة فذكر بلفظ الفعل الدال على التجدد"[202].

ويرد في سياق آخر لدلالة شرعية، كما في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ اللهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ﴾ (الممتحنة:**10**). فنجد في هذا السياق أنه أتى بالمصدر عند ذكر المؤمنات، فقال: "لا هنّ حِلٌّ لهم" ثم تحول عنه البيان إلى الفعل عند ذكر أزواجهن من الكفار فقال: "ولا هم يحلون لهن".

ويبدو أن سر استعمال المصدر للإخبار عن المؤمنات بقوله: "لا هنّ حِلٌّ لهم" هو الدلالة على أن المؤمنات منذ مفارقتهن لحالة الكفر، ودخولهن في الإسلام، أصبحن محرمات حرمة تأبيد على أزواجهن الكفار الذين ما زالوا على كفرهم؛ لذا ناسب المجيء بالاسم "حلٌّ" الدال على الثبوت والاستمرار، إشارة إلى ثبوت الحرمة واستمرارها، وأما في حق أزواجهن فقد تحول إلى الفعل، فقال: "ولا هم يحلون لهن" لدلالة الفعل المضارع على الحال والاستقبال، إشارة إلى أنهم لا يحلون لهن حالة كفرهم، فهو تحريم موقوت يزول بزوال كفرهم ودخولهم في الإسلام.

وفيه دلالة على أن المسلم لا يرجى رجوعه أو ارتداده عن دينه، وأما الكافر فرجوعه عن كفره ودخوله في الإسلام أمر يرجى حصوله منه في الغالب؛ لأن ما هو عليه باطل، فكان حاله في تغير وتجدد، فناسب ذلك مجيء الفعل الدال على التجدد والحدوث والتغير في حق أزواجهنّ الكفار.

202- غرائب القرآن، 405/3.

الخاتمة

في ختام هذه الدراسة نجد أن تحولات التركيب في النظم القرآني هي أبرز مظاهر الإعجاز البياني في القرآن الكريم، والسياق هو الذي يحدد الدلالة المناسبة هذا التحول البياني، وأن الأفعال تكتسب دلالتها الزمنية من السياق الواردة فيه، لا من بنيتها الصرفية فحسب.

ويصعب حصر دلالات هذه التحولات في البيان القرآني المعجز؛ لاتساع معاني البيان القرآني من جهة، واختلاف فهوم العلماء والبلاغيين المتلقين له، لاختلاف قدراتهم البلاغية في تذوق أسراره واستنباطه دقائقه.

وأن دراسة هذه التحولات في البيان القرآني تمثل روح نظرية النظم التي نادى بها الجرجاني، بل هي دراسة تطبيقية مباشرة للنظم، وتبرز هذه التحولات في النظم دلالات نفسية، وتربوية فكرية، كما هو الحال في السياقات القرآنية التي تصف حال المؤمنين والمنافقين و الكفار، كذلك الآيات التي وصفت مشاهد الخلق في الكون و الحياة.

ودللت هذه الدراسة على أن الإعجاز البياني من خلال فهم التراكيب ودلالات الألفاظ هو الطريق إلى فهم الإشارات العلمية ومظاهر الإعجاز الأخرى من تأثير نفسي وإعجاز علمي وغيره.

وكذلك أبرزت هذه التحولات في النظم الجوانب الغيبية في صورة المشاهد المحسوسة المرئية، قطعاً بحدوثها وحصولها كما هو الحال في السياقات القرآنية التي تحدثت عن عوالم الغيب.

وختامًا ستبقى دلائل إعجاز هذا البيان الإلهي الخالد مستمرة، ممتدة بامتداد العصور، تتسع معانيه لكل العصور المختلفة، باقية شواهد إعجازه، وبارزة لكل متدبر متأمل في دقائق نظمه وأسرار بيانه.

قائمة المصادر والمراجع

القرآن الكريم

• أثر النحاة في البحث البلاغي، عبد القادر حسين، دار غريب، القاهرة، **1998**م.

• أسلوب الالتفات في البلاغة القرآنية، د. حسن طبل، (د.ن)، **1990**.

• الإعجاز الصرفي في القرآن الكريم، دراسة نظرية تطبيقية للتوظيف البلاغي لصيغة الكلمة، عبد الحميد أحمد يوسف هنداوي، المكتبة العصرية، بيروت، ط**1**، **1422**هـ - **2001**م.

• أقسام الكلام العربي، من حيث الشكل والوظيفة، د. فاضل مصطفى الساقي، مكتبة الخانجي، القاهرة، **1977**م.

• الإيضاح في علل النحو، أبو القاسم الزجاجي (ت **337**هـ)، ت: مازن المبارك، دار النفائس، بيروت، ط**3**، **1979**م.

• الإيضاح في علوم البلاغة، الخطيب القزويني (ت **739**هـ)، ت: محمد عبد المنعم الخفاجي، ط**3**، المكتبة الأزهرية، **1993**م.

• البحر المحيط، أبو حيان الأندلسي، (ت **754**هـ)، ط**2**، دار الفكر، بيروت، **1983**م.

• بدائع الفوائد، أبو عبد الله محمد بن أبي بكر، ابن قيم الجوزية، (ت **751**هـ)، دار الفكر، بيروت، **1977**م.

• البرهان في علوم القرآن، بدر الدين الزركشي (ت **794**هـ)، ت: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعرفة، بيروت، لبنان، ط**2**، **1972**م.

• البلاغة العربية في ضوء الأسلوبية ونظرية السياق، د. محمد بركات حمدي أبو علي، دار وائل، عمان، الأردن، **2003**م.

• البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري، محمد أبو موسى، مكتبة وهبة، عابدين، القاهرة، ط**2**، **1408**هـ- **1988**م.

• التبيان في إعراب القرآن، أبو البقاء عبد الله بن الحسين العكبري، (ت **616**هـ)، ت: علي محمد البجاوي، دار الجيل، بيروت، ط**2**، **1987**م.

• تحولات البنية في البلاغة العربية، د. أسامة البحيري، دار الحضارة، مصر، ط**1**، **2000**م.

• التطور النحوي، المستشرق براجشتراسر، ت: د. رمضان عبد التواب، ط**2**، مكتبة الخانجي، القاهرة، **1994**م.

• التعبير القرآني، د. فاضل صالح السامرائي، دار عمار، الأردن، ط**2**، **2002**م.

• تفسير أبي السعود، المسمى بإرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، أبو السعود محمد بن محمد العمادي، (ت **951**هـ)، دار المصحف، القاهرة، د.ت.

• تفسير التحرير والتنوير، الطاهر بن عاشور، الدار التونسية للنشر، تونس، **1984**م.
• تفسير الفخر الرازي، المشتهر بالتفسير الكبير ومفاتيح الغيب، فخر الدين محمد بن عمر الرازي (ت **604**هـ)، دار الفكر، بيروت، ط**1**، **1981**م.
• تفسير غرائب القرآن ورغائب الفرقان، نظام الدين الحسن بن محمد بن حسين القمّي، (ت **728**هـ)، ضبطه وخرج أحاديثه زكريا عميرات، دار الكتب العلمية، بيروت، ط**1**، **1416**هـ - **1996**م.
• تفسير في ظلال القرآن، سيد قطب، دار الشروق، بيروت، ط**22**، **1414**هـ - **1994**م.
• التوجيه البلاغي للقراءات القرآنية، د. أحمد سعد محمد، مكتبة الآداب، ط**2**، القاهرة، **2000**م.
• جدلية الإفراد والتركيب في النقد العربي القديم، محمد عبد المطلب، القاهرة، **1995**م.
• الجملة العربية والمعنى، د. فاضل صالح السامرائي، دار ابن حزم، بيروت، **2000**م.
• حاشية الانتصاف، أحمد بن المنيّر الإسكندري، (ت **683**هـ)، بهامش الكشاف، دار الفكر، بيروت، **1977**م.
• حاشية الشهاب الخفاجي على تفسير البيضاوي، المسماة عناية القاضي وكفاية الراضي على تفسير البيضاوي، القاضي شهاب الدين الخفاجي (ت **1069**هـ)، ت: عبد الرزاق المهدي، دار المكتبة العلمية، بيروت، **1997**م.
• الحجة في القراءات السبع، أبو عبد الله الحسين بن أحمد بن خالويه، (ت**370**هـ)، ت: عبدالعال سالم مكرم، دار الشروق، ط**3**، بيروت، **1979**م.
• خزانة الأدب، ولب لباب لسان العرب، عبدالقاد بن عمر البغدادي، (ت **1093**هـ)، ت: محمد نبيل طريفي، وأميل يعقوب، دار الكتب العلمية، بيروت، **1998**م.
• خصائص التراكيب، د. محمد أبو موسى، مكتبة وهبة، القاهرة، ط**2**، **1980**م.
• الخصائص، أبو الفتح، عثمان بن جنّي (ت **392**هـ)، ت. محمد علي النّجار، دار الكتاب العربي، بيروت، **1952**م.
• الدر المصون في علوم الكتاب المكنون، أحمد بن يوسف المعروف بالسمين الحلبي، (ت **756** هـ)، ت: أحمد محمد الخراط، دار القلم، دمشق، **1987**م.
• دلائل الإعجاز، عبد القاهر الجرجاني ت (**474**هـ)، ت: محمود محمد شاكر، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط**3**، **1992**م.
• روح المعاني، شهاب الدين السيد محمود الألوسي (ت **1270**هـ)، إحياء التراث العربي، بيروت، (د.ت).
• الزمن واللغة، مالك المطلبي، الهيئة المصرية للكتاب، مصر، **1986**م.
• شرح السعد على التلخيص، ضمن شروح التلخيص، مؤسسة دار البيان العربي، بيروت، ط **4**، **1992**م.

• شرح الكافية في النحو، رضي الدين محمد بن الحسن الاستراباذي (ت **686**هـ)، ت: د. عبدالعال سالم مكرم، عالم الكتب، القاهرة، ط**1**، **2000**م.
• الضمائر في اللغة العربية، د. محمد عبد الله جبر، دار المعارف، القاهرة، **1983**م.
• الطراز، المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز، يحيى بن حمزة العلوي، (ت **745** هـ)، مطبعة المقتطف، مصر، **1914**م.
• علم المعاني، دراسة بلاغية ونقدية لمسائل علم المعاني، د. بسيوني فيود، مؤسسة المختار، القاهرة، **1998**م.
• الكتاب، لسيبويه، أبي بشر بن عمرو بن عثمان بن قنبر، (ت **180**هـ)، ت: عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط**3**، **1988**م.
• الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، أبو القاسم جار الله محمود بن عمر الزمخشري، (ت **538**هـ)، دار الفكر، **1977**م.
• الكون والإعجاز العلمي للقرآن، منصور محمد حسب النبي، ط**2**، دار الفكر العربي، القاهرة، **1991**م.
• المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر ضياء الدين بن الأثير (ت **636**هـ)، ت: أحمد الحوفي وبدوي طبانة، دار الرفاعي، الرياض، ط**2**، **1983**م.
• المحتَسَب في تبيين وجوه شواذ القراءات والإيضاح عنها، أبو الفتح عثمان بن جني، (ت **392** هـ)، ت: محمد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، **1998**م.
• مسالك العطف بين الإنشاء والخبر، د. محمود توفيق سعد، مطبعة الأمانة، مصر، **1993**م.
• معاني الأبنية في العربية، د. فاضل صالح السامرائي، جامعة الكويت، **1981**م.
• معاني النحو، د. فاضل صالح السامرائي، دار الفكر، الأردن، ط**1**، **1420**هـ-**2000**م.
• معاهد التنصيص، على شواهد التلخيص، عبدالرحيم بن أحمد بن العباسي، (ت **963**هـ)، ت: محمد محيي الدين عبدالحميد، عالم الكتب، بيروت.
• مفتاح العلوم، أبو يعقوب يوسف بن أبي بكر محمد بن علي السكاكي، (ت **626**هـ)، ت: نعيم زرزور، دار الكتب العلمية، بيروت، ط**1**، **1983**م.
• المفردات في غريب القرآن، الراغب الأصفهاني (ت **502**هـ)، ت: محمد سيد كيلاني، مصطفى الحلبي، مصر، **1961**م.
• من أساليب التعبير القرآني، دراسة لغوية وأسلوبية في ضوء النص القرآني، د. طالب محمد إسماعيل الزوبعي، دار النهضة العربية، بيروت، **1996**م.
• الموافقات في أصول الشريعة، أبو إسحاق إبراهيم بن عاشور بن موسى بن محمد اللخمي الشاطبي، (ت **790**هـ)، ت: مشهور بن آل سلمان، دار عفان، السعودية، ط**1**، **1997**م.

• مواهب الفتاح، ابن يعقوب المغربي، (ت **1110**هـ)، ضمن شروح التلخيص، مؤسسة البيان العربي، بيروت، ط**4**، **1992**م.

• موسوعة الإشارات العلمية في القرآن والسنة، د. عبد الباسط الجمل، دار غريب، القاهرة، **2000**م.

• النبأ العظيم، نظرات جديدة في القرآن، د. محمد عبد الله درّاز، ت: محمد عبدالحميد الدخاخني، دار طيبة، الرياض، **1997**م.

• النحو والدلالة، مدخل لدراسة المعنى النحوي-الدلالي، د. محمد حماسة عبد اللطيف، دار الشروق، ط**1**، **1420**هـ- **2000**م.

• النظم القرآني في آيات الجهاد، د. ناصر الخنن، مكتبة التوبة، الرياض، **1996**م.

• همع الهوامع، الإمام جلال الدين السيوطي، (ت **911**هـ)، ت: د. عبدالعال سالم مكرم، مؤسسة الرسالة، ط**2**، **1987**م.

الرسائل والدوريات

• الالتفات في القرآن، الشاذلي الهيشري، حوليات الجامعة التونسية، العدد الثاني والثلاثون، تونس، **1991**م.

• التعبير القرآني والدلالة النفسية، عبد الله الجيوسي، (رسالة دكتوراه، مخطوطة) الجامعة الإسلامية، ماليزيا،**2001**م.

• جماليات الالتفات، د. عز الدين إسماعيل، ضمن قراءة جديدة لتراثنا النقدي"، أبحاث ندوة نادي جدة الأدبي، **1988**م.

• منهج في التحليل النصي للقصيدة، د. محمد حماسة عبد اللطيف، مجلة فصول، المجلد الخامس عشر، العدد الثاني، صيف **1996**م.

• النحو والشعر، قراءة في دلائل الإعجاز، د. مصطفى ناصف، مجلة فصول، العدد الثالث، إبريل، **1988**م.

• النص الأدبي بين القارئ والمبدع، غسان السيد، مجلة المعرفة، العدد **407**، آب **1997**م.

• النص الأدبي والمتلقي، سعود محمود عبد الجابر، الفكر العربي، ع **39**، صيف **1999**م.

فهرس الموضوعات

المقدمة	**3**
التمهيد	**7**
القيم الفنية للتحول السياقي	**9**
المبحث الأول : التحول في الأفعال	**11**
الصورة الأولى: التحول عن الفعل الماضي إلى المضارع	**13**
الصورة الثانية: التحول عن الفعل المضارع إلى الماضي	**25**
الصورة الثالثة: التحول عن الماضي إلى الأمر	**31**
الصورة الرابعة: التحول عن المضارع إلى الأمر	**34**
الصورة الخامسة: التحول عن الأمر إلى الماضي	**36**
الصورة السادسة: التحول عن فعل الأمر إلى المضارع	**38**
المبحث الثاني : التحول في الأسماء	**41**
أولاً: التحول في الضمائر	**41**
الصورة الأولى: التحول من التكلم إلى الخطاب	**43**
الصورة الثانية: التحول من التكلم إلى الغيبة	**44**
الصورة الثالثة: التحول من الخطاب إلى التكلم	**46**
الصورة الرابعة: التحول من الخطاب إلى الغيبة	**46**

فهرس الموضوعات

الصورة الخامسة: التحول من الغيبة إلى التكلم	50
الصورة السادسة: التحول من الغيبة إلى الخطاب	55
ثانياً: التحول من الضمير إلى الاسم الظاهر	58
ثالثاً: التحول في أسماء الإشارة والأسماء الموصولة	65
المبحث الثالث : التحول من الاسم إلى الفعل والعكس	69
ثانياً: التحول من الفعل إلى اسم المفعول	77
ثالثاً: التحول من المصدر إلى الفعل	78
الخاتمة	81
قائمة المصادر والمراجع	83
فهرس الموضوعات	87

جمعية البلاغ الثقافية

Al-Balagh Cultural Association

IslamOnline.net

إسلام أون لاين.نت

/ISLAMONLINE

/ISLAMONLINE_NET

@ISLAMONLINE

/ISLAMONLINE

islamonline.net/apps

لأي إستفسار

500 44 304

T : +974 44 56 7777 F : +974 445 67766 P.O.Box : 22212 Doha-Qatar

Email : info@islamonline.net Web : balaghcs.org

Al-Balagh Cultural Association